عبد الحكيم قاسم

٦٩٤

أبو عبدو البغل

الأخت لأب

وسطور من دفتر الأحوال

* عبد الحكيم قاسم: الأخت لأب وسطور من دفتر الأحوال.
* الطبعة الأولى، ١٩٨٣.
* جميع الحقوق محفوظة.
* الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر.
ص. ب. ٦٤٩٩ ــ ١١٣ بيروت ــ لبنان.
الصنوبرة ــ أول نزلة اللبان ــ بناية عساف.

عبد الحكيم قاسم

المجمع الثقافي
دار الكتب الوطنية
أبوظبي

الأخت لأب

وسطور من دفتر الأحوال

دار الكتب الوطنية
رقم التقييد ٦٩٤٥٢
الرقم الخاص ٨١٢/٠٣
ق ك ١ ت

129198

الشروق

١ــ الأخت لأب

*

هذا القطار يستنشق شوكت، وهزيمه الرتيب الوحشي يتدفق في عروقه، ينبض جسده مع نبضات القلب الفولاذي الهائل، يمتلىء كبرياءً وحزناً، ينظر محاذراً متخوفا إلى العيال الهاربة الذين يتقافزون بصناديق بضاعتهم بين مقاعد الركاب، وإلى رجال نحيلين في ثياب رثّة لهم عيون الحدءات ومناقيرها، وإلى نساء لحيمات وسخات يناديرو على فاكهتهن العطنة نائحات في شراسة، وإلى ماسحي الأحذية الذين يصفقون بالخرق على صناديقهم الزرية، تلك زفّة كفار تضج بالعدوان والقبح بلا قراءة أو وقار، لا تني تتفلت بين المقاعد، والركاب على الجانبين ينظرون بخوف، الحشرجات المسعورة الملهوجة محتوم أن تندحر تحت هزيم هذا القطار الجليل.

يصرف شوكت عينيه إلى الشباك محاذراً أن يلمح استسلام روحه لتسلط الصخب المكتسح، أعمدة التليفون تنسحب مسرعة واحداً وراء الآخر، وتلك الترعة الصغيرة تتقطع أنفاسها للحاق بالقطار الماضي في عنف، يبتسم لها شوكت من قلبه، وجهها تغطيه سحب من نبات البشنين والياسمين، وبين آنٍ وآخر تنبثق زهرة بيضاء في ركام الخضار، يتحسسها شوكت من البعد بعينيه يعرفها ريّانة ناعمة الوجنات.

حافة الحقول تدور حول نقطة ثابتة غائرة من الأفق، جميزات وشجرات سنط جوائم على شطوط أخاديد الترع المتعرجة عبر امتداد الحقول، وهنا وهناك رجل أو بهيمة ينظرون إلى القطار المنطلق وهم مثقلون بالغوث ومثلة القعود،

تتعلق عيونهم به لحظة . . ثم يأوبون إلى دأبهم الوئيد.

ويريد شوكت أن يستجلي تلك النقطة الثابتة التي تدور حولها كل الأشياء، ويحذر أنها ربما تكون في مقر بحر الصمت هذا المعلقة فوقه الشمس، وأن صلصلة أحشاء القطار الفولاذية إنما هي دوران حذو الحافة، والهزيم المدوي تربطه إلى الصمت المطلق أحبال يراها قلبه، يدوخ فهمه لغرابة هذه القرابة المحكمة، . . . يأوب.

المنديل الأزرق منصوب على جبين أمه الأبيض الناصع المتورِّد، يتمنى أن تحضنه، وأن يضع باطن أنامله يتحسس نبالة هذا الجبين، وهذين الحاجبين الشقراوين القليلي الشعر، وأنفها الرقيق المستقيم، يتمنى، لكن أمه لا تفعل، وزمّة فمها لا تنفرج، وتلك الخطوط الرقيقة تشع حول الشفتين القائمتين وتغيب في الزغب الأشقر على بياض خديها وذقنها.

عبر الشباك تسبح عيناها بعيداً في الأفق، يستحي شوكت من احساسه المرير بالغربة والوحشة، ينكّس بصره، يتأمل كفي أمه الكبيرين وأصابعها القوية، تضم جودت الرضيع في لفائفه الكثيرة، يرى أذن الصغير ووجنته وأنفه وعينه المغمضة وشعره الأسمر الملتصق بجبينه، ما أسعد أن يكون الواحد طفلا صغيراً محضوناً ملفوفا.

يعرف شوكت أن ثمة في حياته يوماً بعيداً كان فيه طفلا ملفوفا محضونا، وأن هذا اليوم كان جميلا، وأنه ما تزال تُحكى عنه الحكايات، عن الكلمات المتموِّجة الأولى، عن رمد العينين ووجع البطن وتردد أمه به على الحكماء، ينصت شوكت لهذه الحكايات خافق القلب، حكايات ما تلبث أن تنفضّ ويقوم الناس إلى شغل الدار وهموم المعاش.

لكن شوكت لا ينسى، تلقي به الحركة الدائبة إلى ركن مقصي، يتأمل أمه تعمل في الدار بكل عزم، رنين الحكايات في قلبه ما يزال، يريد أن يصطاد عيني أمه، يبحث في أغوارهما البعيدة عن طفولته، عن تلك النقطة الثابتة التي يدور حولها قلبه دورة كئيبة موحشة.

شهرت التي ما تزال تعاني من الفطام تنام على حجر أخته لأبيه مبروكة، تمص في رتابة سبابتها المطوية، مبروكة تهدهدها كل آنٍ بحركة آلية من فخذها بلا كثير اهتمام، لكنها لا تغفل عماً حولها، ترقبه بعيني دجاجة خائفة، وإنْ كانت

على خوفها البادي لا تنسى فرحتها بمنديلها الزهري المثقل بالترتر، المربوط في عقدة كبيرة على شعرٍ مقصوص، ولا تنسى زهوها بقرطها الذهبي، تتلفت في عجب، عيناها بنيتان كبيرتان في وجه أسمر شاحب.

شوكت ينظر لها متعجبا، يربطه بها التعلق والمهابة، مسحور بها دائما، مندهش لا تسفر دهشته عن فهم، في الأول كانت تقضي سحابة يومها في الحقل مع أخيه الأكبر لا تاوب إلاّ في المساء، يرقب شوكت عودتها في قلق، يطير فرحا إذا رآها، يقضيان المساء يلعبان إنْ في الدار أو في الشارع، لا تنفد أغانيها ولا تنقضي تفانينها ولا تُغلَب حيلها... الآن حاشها الأب عن السروح وكرّسها لرعاية شهرت المفطومة، والآن يتبعها شوكت كظلها، وهي تحمل المفطومة غافلة عنها كأنما الطفلة جزء منها، تغني وتزعق، تلعب وتجري في كل اتجاه، وكل آنٍ تلتفت إلى شوكت:

ـ تعالى..!

يهز رأسه مؤكداً ويجري لاحقاً بها.

وقد غضبت عليه مرة وهما يلعبان، ولم يتحقق ماذا كانت جريرته، وهي لم تقل له شيئا، لكنه رآها تنتصب فجأة واقفة، ساقاها رفيعتان سوداوان مغروستان في الأرض، تحمل شهرت على ذراع وذراعها الأخرى حرة تلوِّح بها في كل صوب، أو تبسط كفها على خاصرتها ملقية كتفيها إلى الوراء ووجهها مكفهر غضباً:

ـ أتباهيني بأنك أبيض وأنا سمراء..!!؟

ولم يفهم شوكت شيئا، مباهاتها لم تخطر له على بال، لكنه يبهره أنها تتكلم كالكبار، وحتى في الكبار لم يسمع شوكت أحداً يقول هذه الكلمات العجيبة:

ـ أتباهيني بهذا..؟ مباهاتك مردودة عليك... الجبر بالأكوام والفلفل بالميزان..!!

ونسي شوكت حتى خوفه منها، انشغل عقله بحل طلاسم كلماتها وملاحقة حركات قدّها العفريت، موصولة به شهرت المفطومة تروح وتجيء معه، وذيل منديل رأسها يطير خافقاً وملامحها تتراقص في وجهها المكفهر:

ـ إعرفْ إذا لم تكن تعرف... نحن سمر... السمار لنا.. والبياض عار علينا..!!

وقبض على قلب شوكت خوف من هذا الاعلان الحاسم، لم يفهم شيئا كثيرا لكنه كره أن يُنبَذ، أن يُنفَى، كره تلك الشقرة في شعره، وأن يكون توحده مع عالم أبيه وأعمامه وأخيه الأكبر هكذا غير واضح، تمنى لو كان أسمر أجعد، وتمنى لو كانت زوجة أبيه هي أمه، وأن يكبر ويلبس جلباب الفلاحين ويحمل الفأس على كتفه رجلاً هائل الساعدين.

لو كانت أم مبروكة هي أمه، وأن ينام عندهم، زوجة أبيه أرفق به على أي حال، وهي تحضنه كثيرا وتقبله، لكنه يجد قبلاتها لزجة، وبين جسده وجسدها يبقى حائل رقيق من الغربة لا يذيبه الاحتضان، ولقد نسيت مبروكة زعلها فجأة وأكبّت على عالمها الصغير، البيت المرسوم على الأرض ، عرائس الطين وأدوات الطبيخ، تلعب وتغني في انخراط كأنما لم يحدث شيء، أمّا شوكت فإنه كانت تعذبه الحيرة.

يكره شقيقته الصغيرة حكمت الجالسة بجواره على المقعد، فهي سمجة وبليدة، ويكره بشكل خاص جوربها المتدلي على صندلها في غباء، رفس رجلها المدلاة المتأرجحة، والبنت لوت شفتيها وامتلأت عيناها بالدموع، ثم انفجرت في بكاء لا يمكن لضجة القطار أن تخفيه، والأم رمقت شوكت معاتبة:

ـ لا تترك اختك لحظة دون أن تؤذيها..!

وهو رد معانداً:

ـ إنها توسِّخ جلبابي بصندلها يا أمي..!

وردّت الأم متوسِّلة:

ـ هل ندخل على جدك وجدتك بالنكد في أيدينا..!!؟

قالت هذا وهي تشد البنت تجلسها إلى جوارها، وبقي شوكت لوحده على المقعد، يداري كسوفه أمام عيني أمه بالتلفت، أو أرجحة رجليه، أو تأمل كفيه، ستكونان مليئتان بالنكد إذا دخل على جديه، عبس، كيف يكون ذلك ، خاف ثم شرد، عاد يستلبه صخب القطار، وظل هكذا معلق القلب، ثم اصبح الصوت عميقا مجوّف الأصداء، أدرك دخول القطار على الكوبري، وقف في

الشباك يرى البحر والقلاع البيضاء على البعد، ثم صف الشجرات المقصوصة في الشارع الطويل على الشاطىء، وصف العمائر الكبيرة، والناس الكثيرين، ثم يدخل القطار مجتاحاً مسرعا قويا على صفوف الوجوه الخائفة الملتاعة المتوثبة على رصيف المحطة.

وقف القطار وحصل هياج عظيم، الراكبون يهجمون على الأبواب والشبابيك، والنازلون يتملصون محاولين الخروج من الفتحات المسدودة بهذه الأجساد، الكل يصرخ ويزعق ويشتم، الكل يحمل صررا وقففا وسلالا، والباعة يجرون ببضاعتهم كأنما شبّت في ذيول جلابيبهم النار، والمتسولون يعرضون عاهاتهم ويدعون ويتوسلون بالأولياء، وشوكت مذعور ألاّ يجد في قلب هذا الهول بائع الحلوى، وإذا بجده تتكلبش عليه عيناه، لكنه يعود ينفلت منه غائراً في قلب الزحمة، ما يراه مرة أخرى حتى يصرخ:

ــ ها هو يا أمي...!

ورمقته الأم معاتبة أسيفة:

ــ لا تصرخ هكذا كأنك لم تر الحلوى في حياتك..!

ثم أنها أخرجت صرّة نقودها، والرجل لف الحلوى وخطف القرش وطار يصيح مناديا على حلواه.

يمضغ شوكت ويتمطق في استمتاع سارق سرق ولم يضبطه الخفر، مسرة دهشة مستهترة تلف قلبه، يرمق مبروكة، إنها ملولة أو هي دهشة، تمضغ في رتابة، يلقي برأسه إلى الوراء يطوِّح رجليه خجلاً، يريد أن يداري ولعه الشديد بهذه الحلوى.

القطار يتحرك بحمله، الناس مبعثرون على الرصيف يولون ظهورهم ويمضون نازلين، أو تتعلّق أبصارهم بناسهم المسافرين يلوِّحون لهم من الشبابيك، والراكبون قد تفرّقوا على المقاعد في العربة، يتأملهم شوكت، في أفواههم بقايا شتائم غاضبة تختلط بضحكات انتصار، فالواحد منهم في النهاية قد ركب، وقد وجد مقعداً خاليا، لكن ثمة هنا وهناك مَنْ يسأل ملهوفا على العيال، أو على القفف والصرر والسلال، وبين صفي المقاعد يتدفق سيل الباعة والمتسولين وماسحي الأحذية، ويختلط النداء على البضاعة بالتوسل بالأولياء بخبطات الفرش على صناديق الورنيش، شوكت يراقب كل هذا، في فمه طعم الحلوى وفي قلبه

تتصاعد سرعة القطار رويداً. . . رويداً.

إنه حينما يأكل هذه القطعة من الحلوى على هذه المحطة يكون قد قارب على الولوج في عالم بيت جده الغريب، ولقد بدأ يسمع لكنات الألسن واختلاف ملامح وجوه الناس وسيرتهم في ألوان الطواقي، وتوسيع فتحات صدور الجلابيب وتدلية الأكمام، ويضج الضحك في قلبه إذا يصطاد سمعه كلمة تبين فيها المغايرة بين كلام الناس هنا وفي قريتهم.

يرتجف من بهجة الارتحال، لكن وجه أمه لا تستريح فيه أبداً زمة الضم ولا تتوانى فيه العينان عن التحديق الحازم المتسائل، يترقب متعبداً، كل خلية في كيانه قلب نابض بالحب، حتى يرى في الجبين النبيل رقراق سرور خفي، يهز رجليه فرحاً، يضحك ضاما يديه في حجره.

يرفع بصره صوب مبروكة، عيناها البنيتان الواسعتان فيهما شيء من الانصراف أو الاستنكاف، تنظر اليه كأنها مفارقة، تباعد بينها وبين فرحته بعالم جده هذا، تغبطه بخلاسيته وعدم نقاء انتمائه، بنت الأب هذه التي لا ترحم ولا تحاول أن تفهم، ربما كان أحسن لو أنها لم تأت معهم، تنغّص عليه سروره، ينقبض قلبه وتركبه الكآبة.

ينظر من الشباك يعرف ملامح الطريق، يعرف اقتراب قرية جده لأمه، ويدرك في قلبه تخلخل سرعة القطار، يقبض على قلبه الخوف، تنهض الأم حاملة جودت الرضيع، تنهض مبروكة حاملة شهرت المفطومة، تتجه الى الطرقة بين صفي المقاعد دون أن تنظر إلى شوكت، ويكون شوكت في آخر صفهم وفي يده أخته حكمت، يسيطر على داخله الصمت، وعلى ما حوله رغم الضجة، شيء ما في قلوب المسافرين، شيء صغير مرتعد وخائف، فما أحد يدري ما الذي يختبيء في آخر السكة. .

*

كان شوكت في الفترة الأخيرة يتفكّر كثيراً في بطن أمه الهائلة من الحبل، وذلك العذاب في عينيها، وكدحها في وسط الدار وهي مثقلة بحملها لاهثة، يتفكّر في هذا وهو يلعب وحده أمام باب الدار، يصيبه القلق على أنه يريد أن يعود لكنه يحجم وينقبض قلبه، ففي دارهم لا ينفضّ العراك أبداً بين أمه وزوجة أبيه أو زوجة أخيه، يتعادون بشراسة وضراوة من الصبح حتى الليل، يظل شوكت من الباب المفتوح على وسعه، يرى أمه تكنس وسط الدار، تحمل الكناسة إلى الزريبة، تطعم الفراريج، وفي كل هذا لا تكف عن العراك الشرس وهي قائمة بحملها الثقيل في الباحة. زوجة أبيه وزوجة أخيه كل على عتبة غرفتها يبادلنها الزعيق بمرارة وحنق ، يلوِّحن في وجهها بأيديهن، يصفّقن بالكفوف ويضربْن الأرض بالأقدام، وأم شوكت تذود عن نفسها بضراوة واصرار، يظل شوكت يتأمل هذا المشهد حتى تتعب عيناه، ويغلِّف المرئيات ضباب، كأنه يحلم، وكأنما يرى رقصا غريبا أو مناحة عظيمة، وهناك موت وقبور فاغرة الأفواه مظلمة الحنايا، ويرى شعوراً مهوّشة ووجوهاً مخموشة، يدرك أنه يضحك من الرعب، يمضي مبتعداً عن الدار، يحدِّق في المرئيات من حوله كأنما أفاق من نوم طويل.

تحت النخلات في الجرف الذي تطل عليه شرفة الدوّار لا يجد أحداً، الناس الآن في الغيط، كذلك العيال، وإنْ كان الكبار منهم في الكتّاب أو في المدرسة، لا يحزنه هذا كثيرا، يستطيع أن يلعب وحده، من الخير أن عمه وأخاه

في الغيط، مبروكة مع الأخ الكبير تساعده، وعندما تعود تحكي أن ذلك كان رائعا، لكنه لا يريد أن يكون معهما، من الخير أن العم والأخ الكبير ليسا هنا الآن، يبرطع وحده تحت النخلات مسرورا، يتقافز هنا وهناك، لكن الملل يلحقه سريعا، يمضي جاهلا غير عارف ماذا يصنع.يمر أمام شرفة الدوَّار، لا أحد يجلس فيه الآن.

الأب مسافر، هو دائمًا على سفر، يلبس جلبابه الكشميري الكبير وعمامته الشاهقة، ويضع عباءته مطويّة على كتفه، ويعلّق مظلته على ساعده الأيسر مضموما إلى قلبه، ويتخذ عصاه، يتجهم وجهه، وتطير عيناه تطلان على الأبعاد ويمضي، يخلّف شوكت وحيداً مكسوراً، يجمع شمل نفسه، يمضي إلى أمه، يتلكأ في الأركان، يأمل أن يصطاد التفات عينيها، اهتمامها، فالأب إذا عاد يزعق، يحكي متوثبا في مطرحه عما رأى وشاف ولا يأبه لشوكت إلاّ قليلا.

يرى زوجة جده جالسة أمام باب دار أعمامه وحولها العمات وزوجات الأعمام، يجري ماضياً نحوهن. وإذا يقترب منهن ينظرن له بعيون غير ودودة، ينكسف ويخاف منهن، لكنه يواصل مضيه نحوهن، لا تنادين عليه، يجلس بعيدا، يصطنع أنه يلعب بشيء في الأرض وأنه لاهٍ عنهن، لكنه في الحقيقة ينصت لهن ويراقب حركاتهن ويدرك أنهن يتكلمن عنه، يشتمن أمه ويعبن عليها بالغمزات والضحكات، يصيبه الخوف، يقوم متسللا، لا يستبقينه ولا ينظرن أين يمضي، يحس كلماتهن في ظهره، تكبس على قلبه غيوم الكآبة.

يمضي بقلبه الثقيل في صدره، الأشياء أعوص من أن يصورها في كلمات، يحجل، يتقافز، يمضي، يدبّ في أرجاء دار أعمامه الشاسعة، من الخير أن الجدة والنسوان قد اتكأن الآن أمام باب الدار ينشدن طراوة العصر بعد انكسار الظل، ويخلين بينه وبين هذه الدار التي تملأ قلبه حبا ورهبة.

هذه الغرفة كانت للجد المرحوم، كان رجلا صالحا، وكان يقرأ فيها طول الليل قرآنا، وكان في خدمته نفر من الجن الصالحين، هكذا تروي مبروكة عن بخيته، وهي امرأة سوداء كانت جارية للخدمة في هذه الدار في الزمن القديم، وهي تعيش الآن عند ابنها في القرية البعيدة تلو الترعة الكبيرة، وهي تأتي كل حين، وتحل على الدار ضيفه أياماً ثم تعود الى ابنها برزق من الحبوب والخلقان، وتقول مبروكة أن بخيته ــ بفصِّيْ عينيها السوداوين ترى ما لا يراه الناس من خلق الّله.

ويمتلىء قلب شوكت ضحكا إذْ يتذكر بخيته وضيقها – ربما – بحبس المراحيض، وايثارها أن تفك حصر نفسها في زريبة البهائم، ها هنا، وتلصص العيال عليها، يريدون أن يروا عجيزتها السوداء كخشبة محروقة، ثم إذا تنهرهم فرّوا يتقافزون ضاحكين لكن شوكت يكفّ نفسه عن الضحك، فالجن الصالحون ما زالوا يعمرون غرفة الجد الكبير، وربما عصفوا به لو رأوا اجتراءه على أثيرتهم بخيته.

يطل شوكت من باب الغرفة الموارب على جوفها المعتم الرطيب وتملأ خيشومه رائحتها العطنة، ينسحب متراجعا رهبة وانقباضا، إنها غرفة مبروكة، مجعولة لولادة الحبالى وتمريض المرضى، لا يدري، ربما تكون البركة شيئا معتما رطبا عطن الرائحة.

لكن الغرفة الأخرى فيها ركن غير مأمون، ربما لأنه واقع لصق زريبة البهائم، والكفرة من الجن يسكنون مباءات الوسخ، ويولعون بما تعافه النفس، ،ايقاع الشر بالخلق هكذا تهمس مبروكة لهم في الأماسي، مخافة أن يسمعوها، وعليها فلا ينام أحد في هذه الغرفة، إنما يُخزَّن فيها تبن البهائم والمحراث القديم المكسور، وبقايا نورج، وفيها كذلك تلك القنينة الكبيرة المتسخة، المسدودة بقولحة قديمة، مملوءة بزيت أخضر مخصوص لقراع الرؤوس. ارتعب منها شوكت، فإن أمه حذّرته أن يلمسها. وقالت إن أنفاسا نجسة تخرج منها، تحمل القراع لرأسه إنْ هو اقترب منها، ساعة استعاذت زوجة أبيه من الشيطان وقالت إن القراع قسمة ونصيب، لكن أم شوكت لم تأبه لكلامها وأكّدت على شوكت تحذيرها.

في الركن الآخر من الدار فرنان كبيران وكوانين هائلة، تحكي الحكايات أنه ها هنا خبزت الزواويد للأسفار ولوالد الشيوخ، وأنه على هذه الكوانين طبخ طبيخ اللحم في ليالي الأفراح والمآتم. شوكت لم ير شيئاً، وبدارِ أعمامه يستخدمون الآن فرنا واحداً، وربما تسكن الآخر العفاريت، لا يدري. إنما السقف والحيطان مسودة من سناج قديم، والعريشة عامرة بأعشاش عصافير لا تكف عن الصوصوة والتقافز. صخب عظيم، لكنه كائن في جوف صمت محكم، كأنما يراه شوكت في الزوايا والأركان.

وفيما تحكي مبروكة، أن العم الأصغر نصب مرة سلما وظلّ يجوس في العريشة بيديه باحثاً عن أعشاش العصافير الهاجعة في غبش المساء، وهنا على

ظهر هذا الفرن كانت مبروكة وعيال آخرون يتحسسون ظهر الفرن بحثاً عن عصافير تسقط من الأعشاش مصوصوة، وتقول مبروكة يدها الباحثة قبضت على تعبان تكوّرت بطنه بعصفورة كان قد ابتلعها.

يتسلل شوكت متحذراً صموتا لا تخطىء عينه حصاة. في جولاته الكثيرة في هذه الدار يجد دائمًا شيئا ما، جلدة أو خرقة أو حديدة. يظل يقلب الشيء في يده وفي عقله حتى يجد له نسباً إلى صورة يتصورها، أو إلى حكاية يكون قد سمعها.

هذه الخرقة التي تصلّبت بالرطوبة والوسخ ما هي إلاّ بقية معطف مما يتخذه الأفندية، ولا بدّ أنها كانت لأحد الأعمام أيام كانوا يروحون الى المدرسة. لقد سمع عن هذه الحكايات الحزينة، وكيف أن الجد أرسلهم جميعا الى المدرسة، وأن الحمير سافرت كل يوم تحمل لهم في المدينة الزاد والزوّاد، لكن أحداً منهم لم يفلح في قراءة كلمة. كرّوا إلى القرية راجعين. خلعوا المعاطف والأحذية، ألقوا بها بعيداً وأخذوا بمقاود البهائم وسرحوا إلى الغيط.

وإن شوكت لا يفهم، ولا يعرف كيف يصدق، وإنه ليحدق في عيون الأعمام فلا يجد غير القساوة والمرارة والكراهية العميقة. يعييه العياء لكنه لا يكف فضوله الملح، والأعمام هكذا لا يتغيرون. وإذا حُكي طرف من حكايتهم هذه وهم شهود لا ترف في وجوههم الصلدة رفّة حنين للذكرى، يعود شوكت خائباً كسيفا، فهو لا يدري ماذا.. وكيف؟

ينخرط في تنقيبه الدؤوب في الحنايا والأركان. هذه حديدة تراكم عليها الصدأ. يعالجها بين يديه أياما وأياما حتى إذا ما يئس سأل الأم فقالت له إنها لجام فرس. فرح، أدرك أنه يمسك بيده كسرة من جسد حكاية من الحكايات الكثيرة التي سمعها عن خيل كانت للجد، بل وللأب أيضا. وإذا كان قد وجد أيضا هيكلا عريانا لسرج من سروج الخيل، وإذا كان قد زوّد حديدة اللجام بما وقعت عليه يده من حبال، فقد تسلل بهذا كله إلى زريبتهم.

حمارتهم السمراء الكبيرة واقفة هناك، في صمت الزريبة، كئيبة بالتوحّد والهرم، مستسلمة لذبابات تلغ بنهمٍ في مآقيها وفي جروح ظهرها. مسح رقبتها بحنان وهي أطلقت تنهيدة طويلة. تردد قليلا، لكنه ألقى بهيكل السرج على ظهرها. بحر هذا الظهر بالغ الطول مسلوخ مجروح من عناء الشغل وكرب

الأحمال. تنغص سرور شوكت أكثر، لكنه واصل محاولته. ألقم الحمارة حديدة اللجام. نط ركب وجذب بيده حبل اللجام. بهجته يشوبها التأثم، لكنه يجذب اللجام بشده. الحمارة مستسلمة وأذناها الكبيرتان مترهلتان والذباب مهتاج! يطن حول عينيها. نزل شوكت من على ظهرها خزيانا. أخذ أشياءه وخرج.

ربط هيكل السرج على كرسي دون مسند مما يوضع تحت صينية العشاء، مُنَجَّدةً ببقايا حرام وأحبه كثيرا. كان يمتطيه ويهتز به مائلا إلى الأمام وإلى الخلف وهو يطلق صيحات فارس مهول يطير به الحصان قافزا فوق العوائق، وأمه لاهية عنه عاكفة على ماكينة خياطتها. ملّ الكرسي الحصان بعد ذلك ولم يعد يعيره اهتماما.

لا يوجد في الدنيا أكبر من دارهم إلاّ دار أعمامه هذه الهائلة، ينطلق فيها في كل صوب، يحجل في فنائها الواسع حتى يدركه الملل، يتجه إلى السلم الصاعد الى السطوح. عند الانحناءة يوجد ركن الزير. صامت رطب مبلول والقطرات تتجمع عند القن رائقة. تثقل حتى تسقط في بركة صغيرة تحته.. طم.. طم.. طم، وشوكت يرقب منسحبا يتراجع إلى الوراء بظهره حتى تلمس كفه سياج السلم.

وبعد بضع درجات يكون المرحاض، تحاصر شوكت الرائحة الرطبة النتنة، يتلمس نعومة خشب السياج صاعداً إلى أعلى. الشمس منصوبة على تلك الباحة أمام الفرن. يتصور شوكت كأنه من تحت هذه الشمس المتقدة تتن عروق الخشب وأعواد الحطب وذلك الصندوق الخشبي القديم الكبير.

في هذا الصندوق بقايا زوجة الجد التي ماتت في الزمن القديم. كانت صالحة سرها باتع. أحبها الجد وبنى لها قبة، وهذه بقاياها في هذا الصندوق لا يجرؤ أحد على استباحة حرمته، ويحذرون من ذلك كل التحذير. لكن مبروكة تنقض عليه مثل حدأة. تختلس منه قطعة قماش ملوّنة تصنع منها ثوبا لعروستها. تقول تفعل وتفر مسرعة قبل ما تلحقها الجن حارسة الصندوق فتعطبها بلمسة. شوكت لا يجرؤ على الاقتراب، يعبر مسرعاً.

يعبر من سطح بيت أعمامه إلى سطح الدوّار. المنور محاط بسياج متخلع مائل يلمسه محاذرا يطل على أسفل. يتخيل أنه يسمع اختلاط أصوات الرجال ويميز صوت أبيه، يضحك. الباحة بين الغرف العلوية مسقوفة، ومن الشبابيك

تهب طراوة. هنا تجلس أمه أحياناً على ماكينة خياطتها، تخيط لنفسها أو للعيال وأحياناً تخيط بالأجرة ومن هذه القروش تستطيع أن تؤثره أحيانا بحبة فاكهة أو قطعة من العجوة. هي الآن مثقلة بالحبل لا تجلس إلى ماكينة الخياطة. غرفتها الآن مغلقة لا تتخلّ عن مفتاحها أبداً.

قفز نازلا إلى سطح دارهم الأوطأ من سطح الدوّار. يتحسس سكته بين مخازن الغلال وجرار الجبن القديم، يعرف أصابع أمه على السدادات وبصماتها على باب خزانة اللبن. تأتي إلى هنا كل يوم. تضرب القشدة في برام الفخار. يجلس قبالتها كقط. كل آنٍ تمدّ له أصبعها يلحس ما عليه من قشدة. ضحك وطار نازلا من على السلم إلى وسط دارهم.

لكن قلبه انقبض، فالعراك ما زال دائرا. جو الدار عابق بالشر، والزعيق فيه غل وإحَنٌ يصكّ القلب. كأن العصافير في العريشة تفر مذعورة، والحمامات في البناني تطل صامتة والدجاجات تنكش بعيداً في الأرض غير مدركة شيئا. يتسلل جنب الحيطان لا أحد يحس به. يتطلّع إلى وجه أمه أزرق مسوّداً، لكنها تنافح عن نفسها بتصمم. يكاد يبكي فهو جائع. يلقي نظرة على أمه ويمضي.

خرج شوكت أمام باب الدار. رأى وسمع الضجة العارمة تحت النخلات في الجرن الذي تطل عليه شرفة الدوّار. عرف أنه لا بدّ أن يذهب. مسلوبا مثل شاة ضربها الذئب في أم رأسها بنابه تتبعه مخبولة مترنحة حيثما ذهب. مشى ناحية الضجة ثقيل الخطوات غائص الشعور لا يرمش له جفن.

كان العم الأصغر والأخ الأكبر وجمع كبير من رفاقهما قد تحلّقوا حول كلبين يتعاركان، أحدهما يفتك بالآخر فتكاً شنيعاً، وهذا يعوي كأنه رجل مجروح. حينما يزوغ من النزال تضيق عليه حلقة الجدعان محكمة لا تدع له مهربا. يهجم عليه العم يحمله ويطرحه على الكلب الآخر يشبع فيه عضا وتمزيقا وهو يعول عويلا موجعا. الجدعان محمرو الوجوه مخلوعو الطواقي مشعثو الشعر مجنونون بسرور شرس. يكاد الكلب يموت، حينئذٍ يرفسه العم بلا رحمة. يتركه يجري والكلب الآخر يلاحقه ينشب أنيابه في ظهره.

ومشى العم لاهث الأنفاس منكوش الشعر مجدور الوجه محمر الجفون يعرج بعرق النَّسَا وحواليه وخلفه الجدعان. ما إنْ وقعت عيناه على عيني شوكت حتى صرخ به:

ـ تعالى يا ولد..!

انهار شوكت تماماً حتى ما عاد قادراً أن يقيم قامته. أسرع الجدعان يتحلقون حوله يضحكون يزعقون يضربون الأرض بأقدامهم يستعجلون السرور. أشار العم لولد ريفي في حجم شوكت تقريباً وقال له:

ـ تعالى يا ولد..!

ثم وقف بين الاثنين وسط حلقة الجدعان المهتاجين وقال لهما:

ـ الآن تنازلا.. ليرفع كل منكما يده اليمنى هكذا..!

وتماسك الولدان. شوكت دائخ مرعوب لكنه يكافح كفاح المستميت. يوقعه الولد الآخر ويقوم منتصراً. يقوم هو مترنحاً والدنيا سوداء في عينيه. يخبط بيديه خبط الأعمى يبحث عن تقية رأسه. يصم أذنيه زعيق الجدعان وضحكهم الوحشي. يصرخ فيه العم:

ـ تعالى هنا.. نازل هذا.. ليرفع كل منكما ذراعه الأيمن لأعلى..!

تصبح جهود شوكت عشوائية عمياء. ساقاه ترتعشان لا تحملانه. يفقد وعيه بما حوله، حتى كأنما صراخ الجدعان يأتيه من مكان سحيق. ينازل كل العيال وكلهم يغلبونه. يسقط ويقوم دون احساس بالهزيمة. فقد طاش صوابه ولم تعد فيه سوى غريزة البقاء الحيوانية.

الجدعان والعيال يضحكون على شوكت، يلهون به ويدفعونه. هو دائخ لا يرى لكنه لا يفرّ. يبقى واقفاً كأنه مسحور ينظر في صمت إلى العم. وهذا قد ملّ اللعبة وجلس لاهثاً مرتكنا إلى الحائط وحوله الجدعان. يكلم شوكت في مرارة قاتلة وسط الضحك والزعيق:

ـ أنت يلوط بك العيال..!

ويرد شوكت متهدج الصوت.

ـ لأ.

ويواصل العم متحديا:

ـ أنت أبيض وهش كالبنت قعيدة الدار.. أنت يلوط بك العيال..!

والجدعان يضحكون ويزعقون، وشوكت لا يرخي جفونه. يحدّق في عيني العم ويقول مصمما:

ـ لأ

ويقول الأخ الأكبر:

ـ أمه ترفهه بالطعام الناعم وتتلفه بالتدليل..!

وينظر شوكت في وجه الأخ الأكبر دون أن يقول شيئا. يمتلىء وجه هذا كراهية. يقول زاعقاً في شوكت:

ـ روح في داهية..!

لكن شوكت لا يريد . يعلق العم:

ـ لن يكون رجلا أبداً... لا يخرج من حجر الأم رجل أبداً..!

شوكت لا يقول. جامداً ينظر لهم. لا يحول بصره عنهم. رويداً رويداً يملّون الحكاية. يطرأ لهم أن يشغلهم شأن آخر. يقوم بعضهم منصرفا ويأتي ناس آخرون. شوكت الآن خارج وعيهم تماماً. يحس بتحرره من قبضتهم. يتأمل العيال الذين نازلوه. إنهم رفاق لعبه. حينما يلعبون معاً بعيداً عن هؤلاء، أحياناً، تكون أوقات طيبة. يستدير، يعود محطوماً إلى الدار.

في وسط الدار انذعرت الدجاجات من دخوله. زوجة الأب وزوجة الأخ كل جالس على عتبة غرفتها تتحاكيان بحقد وتتذاكران مشاعر العراك الأخير. شوكت يفرّ صاعداً الدرج إلى السطوح إلى غرفة أمه. جالسة على كرسي كبير. تسند بطنها الهائل بيدها وتتوجع. ارتكن شوكت بظهره على الحائط واقفاً قبالة أمه. السرير النحاسي الهائل عليه كلّه وزينة من المخرمات. الدولاب الشامخ صقيل المرايا. على الأرض حصير أبيض . كرسيان كبيران ومتكأ. يعرف نعومة الوسائد ونظافة الملاءات على السرير، فها هنا ينام هو وأبوه. الأم تفرش على الحصير هي والصغار وشوكت يرتاح في هذه الغرفة، وهو يحبها الآن، إلى الدموع. ترفع أمه عيونها إليه قلقة وتسأله:

ـ ماذا بك..؟

ويرد ضائقاً بسؤالها

ـ لا شيء..!

وتلح عليه:

ـ هل آذاك أحد..؟

ويزيد ضيقه:

ـ لم يؤذني أحد..!

متأملة غير مصدقة وتلحّ بالسؤال:

ـ هل أنت جائع؟

ويكاد من الضيق أن يبكي:

ـ لست جائعاً..!

تحاول اغراءه:

ـ هل تأخذ قرشا وتشتري عسلا؟

يصرخ متهدِّجاً:

ـ لا أريد طعاماً خاصاً بي.. ألا تفهمين..؟

تسكت يأساً منه. يعرف أنها غير مصدقة لما قال. يرى قلقها عليه في عينيها، وحزنها الدفين. يتمنى لو تأخذه في حضنها وتضمه إليها ويبكيان معاً حتى الفحمة وتسيل دموعهما أنهاراً. لكن ذلك مستحيل، فمسافة الخوف تستعصي على العبور.

سمع من الحكايات أن أمه ولدته وكذلك حكمت وشهرت في بيت جده في القرية البعيدة . وسمع حكايات كثيرة عن حفاوة الجد والجدة بالأم إذا سافرت لتلد عندهم، يحيطونها بالمحبة ويطبخون لها. لماذا لا تسافر وبطنها يزداد كل يوم تضخما وآلامها تزداد ايجاعا. لماذا لا تسافر؟ يسأل شوكت ليس لأنه لا يعرف ، بل لأنه لا يستطيع أن يصور معرفته في كلمات.

إذا دخل الأب الدار دخل مجتاحا يتوقف لدخوله دولاب كل شيء ويتوجّه اليه كل نظر. شوكت من مكمنه يرقب الفرحة المنتصرة في عينيه حينما يرى أن الأم ما زالت بعد هنا لم تستأذن في سفر. إنها بين ارتباطها بدار أبيها يوما بعد

يوم. وهي تعرف فرحة الأب بهذا متوهجة في عينيه، تنكسر نظراتها إلى الأرض مذلولة. يتمنى شوكت أن يمسك يدها، لكن يدها لم تمتد أبداً ساعية إلى شيء تستند إليه.

جلس شوكت قبالة أمه القرفصاء ينظر لها صامتا والخوف يعصر قلبه. كانت ترش الملح على الرحى في وسط الدار وفجأة لم تستطع الاستمرار. الوجع داهمها مالت تتوسّد ذراعها وتتأوه لينة الصوت عيناها خاليتان من الكبرياء مفعمتان بالمذلّة.

وقد ولدت أم شوكت في ذلك المساء. كان يلعب أمام باب الدار. كل آن يلجّ من الباب داخلاً فيجد في الباحة حركة دائبة وأقدام نساء حافيات تدبّ ذاهبة آيبة فتنذعر منها الفراخ وتطير إلى بنانيها الحمامات. كلهن يدخلن هذه الغرفة أو يخرجن منها، وكلهن يغلقن الباب خلفهن باحكام، وباب الغرفة الكبير الذي سوده السناج يبقى صامتاً كتوماً. لكن شوكت يسمع توجعات أمه واختلاط أصوات عظيم. يهشه الذعر إلى الخارج. يلعب قليلاً أمام باب الدار ثم يلح عليه القلق فيندفع داخلاً.

شبح العراك البغيض غائب الآن عن وسط الدار. ثمة حركة محمومة ونوع من الخوف يخالطه توقع غامض بهيج. شوكت فرح بهذا يتسكع هنا وهنا مطمئناً. زوجة الأب تدلف إلى الغرفة مسرعة وتغلق وراءها. زوجة الأخ خلعت جلبابها وبقيت بقميص خفيف يكشف عن ذراعيها وساقيها. تمشي مسرعة يرتج ردفاها وثدياها كأنها ترقص. منديل رأسها تزحلق عن شعرها وهي تلقي كل آن بغديرتيها على ظهرها. يضحك شوكت.

ذهب إلى باب الغرفة وأرهف سمعه لعلّ الصخب يشي بمجرى الأحداث في الداخل. وطال ترقبه حتى سمع أمه تطلق صرخة عظيمة زاط على أثرها النساء مهتاجات. يوشك رغم رعبه من الصرخة أن يحس في زياط النساء الحبور. البقع السوداء على صدر الباب تهاويل عجيبة. لَبَدَ جنب المصراع ينبش بأصبعه الأبيض الصغير وأظفره الوردي في شقوق الخشب الغائرة، وما أن انفتح الباب حتى دخل متسللاً،فاجأته رائحة زاعقة عجيبة كاد يدوخ منها، ولم يستطع أن يميز في ظلام الغرفة إلاّ المصباح الغبش الزجاجة الموضوع على الرف الطيني في الحائط وأشباح النساء الزائطات على الفرن، العمات والأخوات لأب المتزوجات

وزوجة الأب وزوجة الأخ الأكبر. ظل جامداً في مكانه يحدِّق فيما يرى والرائحة تثقل عليه والأشياء تتضح له شيئاً فشيئاً. ويبدو أن أحداً لم ينتبه له أو يره أصلا وهو واقف في قعر الغرفة أمام فتحة المحماة وفوهة الحنية. قفز متسللا إلى ظهر المصطبة. قفزة أخرى ويكون على ظهر الفرن ولا أحد يراه في هـذا الظلام الشاحب الاصفرار. لكنه لم يفعل ، فهو يرى من هنا جيدا. ويذهل، فالنساء عاريات الرؤوس محلولات الشعر متخففات من الثياب عاريات الأذرع والأفخاذ تصطك أفخاذهن تحت القمصان الخفيفة. الداية أم عساكر عظيمة الصوت هائلة الرأس يلمع الضوء على وجنتيها وأرنبة أنفهـا، بينما دائـرتا عينيهـا مفعمتين بالظلام، وثوبها مشلوح عن فخذين أسودين لحيمين. مدّ شوكت رقبته جاحظ العينين يتأمل فرجها الجسيم. فاجأته ضحكتها المجلجلة وصياحها به:

ــ فيم تشمشم بانفك أيها الكلب الصغير. . . في فرجي. . ؟

حوَّل شوكت عينيه تلاحقه جلجلة ضحكات أم عساكر والنساء الأخريات وكلماتهن الفاجرة. لم يرهن هكذا أبداً، مرحات يعبن ويضحكن من القلب. خاف منهن لحظة، ثم أخذه سرورهن معه، قهقه ضاحكا.

زهرة زوجة أخيه الأكبر تعرّي وركيها وتنزل من على الفرن إلى المصطبة إلى قعر الغرفة وما زال الضحك يخضّها. تكبش الرماد من فتحة المحماة وتصعد به إلى ظهر الفرن تردم به بقعة كبيرة من دماء الوالدة في ذلك الركن. في ضحكه أحس شوكت بالقلق على أمه التي لا يسمع لها صـوتاً في ضجـة النسوان المتخالطة. تلّفت يبحث عنها. لمح وجهها تحت الغطاء وهي راقدة في الركن وإلى جوارها غربال عليه أكداس من اللفائف. خمّن شوكت أن المولود لا بدّ أن يكون في ذلك الغربال. زحف على أربع يقترب منه. زعقت أم عساكر منادية على الوالدة

ــ أريه أخاه. . !

مدت الأم يدها المعروقة العرقانة البيضاء وكشفت وجه الوليد محتقنا أحمر عيناه مغمضتان وارمتان وكفّاه متقبضان حول وجهه. نظر شوكت إلى وجه أمه، ولّما لم يعرف ماذا يقول ضحك. زاطت النسوان بالضحك وزاد ارتباك شوكت، قفز إلى المصطبة ، إلى قعر الغرفة ، فتح الباب وطار خارجا.

فاجأه ضوء وسط الدار وعشي عينيه، لكنه لم ينكص على عقبيه، انطلق

يجري إلى أبيه في شرفة الدوّار:

ــ آبا... أمي ولدت ولداً..!

ابتسم الأب وضحك الرجال. حلّ صمت. قلق شوكت. كلم العم المجدور الوجه الأحمر العينين الأب في جهامة وضيق:

ــ هل تسمّ ابنك.. أم تترك زوجتك تستبد بذلك وتعطي عيالنا أسماء عجيبة.. !وعرف شوكت أن العم يقصده بذلك، فهو لا يحب اسمه ولا يحبه. قبض الخوف على قلبه وهرب لونه. التصق بأبيه. ردّ الأب شارداً:

ــ إنما تسمي الانسان فعالُه..!

لم يفهم شوكت شيئا، لكنه خمّن أن أباه قال كلمة عظيمة، فإن العم سكت والرجال نظروا إلى الأب معجبين. حفظ شوكت الكلمة عن ظهر قلب. في مرة قالها للعيال مباهيا، لكنهم ضحكوا عليه، فلم يقلها بعد ذلك أبداً، ولم ينسها أبداً أيضا. عاد إلى الدار. الدار لا تسّره وأمه غائبة عنها في غرفة ولادتها. زوجة أبيه وزوجة أخيه نشيطتان كأنهما فرحتان بغيبة أمه في حبسها. تروحان وتجيئان منصرفتان لا تنظران ناحيته. يتلكأ ها هنا وها هنا. يحس نفسه مكروهاً متروكا. يخطر له أن يصعد الى ظهر الفرن الجاثم في أقصى وسط الدار. يحاول بعصا أن يصل إلى بنية الحمام. حينما تلتفت زوجة أخيه يلقي العصا ويضع يديه خلف ظهره.

المرأتان تطبخان أمام الكانون وتعبقان الدار بالدخان وتتهامسان. يعرف أنهما تقولان على أمه. قال في نفسه مغتاظاً إنها تطبخ أحسن منهما، وحينما تخرج من غرفة ولادتها ستعودان تجلسان كل على باب غرفتها ولا تعملان شيئا. ستكون أمه هناك. حينئذٍ يجد عند عودته حنانها الجهم الصموت.

يجري إلى غرفة أمه. يقفز على الفرن ويزحف على أربع حتى الفراش. المولود في الغربال بعيدا. تتفرّس فيه الأم. تسأله إنْ كان جائعا. يجول بصره فيما حوله دون أن يجيب. حكمت وشهرت حول أمهما. تشير له الأم على الركن حيث حلة الأرز. يكشفها ويأكل بضعة ملاعق وقطعة دجاجة. يكشف حلة الحلبة ويغرف لنفسه بكوب له أذن زجاجية صغيرة حتى يشبع. الحلبة محلاة بالعسل والحبات ألانها وضيع مرارتها الطهو والحلاوة. زحف ناحية أمه. يريد لو لبد في حضنها، لكنه يخاف من جهامتها.

يضيق برائحة الغرفة وصمتها وظلمتها الشاحبة الاصفرار، وأن بصره لا يصل إلى الأركان، وأن شهرت المفطومة تنزّ بلا مبرر ولا تريد أن تترك رقبة أمها، وأن حكمت وسخت هدومها بالأرز وبقايا جناح الفرخة. جلس أمام أمه متربعاً يهز رأسه ويصفر. قالت له أمه:

ـ لا تصفر.. هذا حرام..!

سكت.

دخلت أم عساكر الداية متهللة تُسَمِّ باللّه وتصلي على النبي وتدعو للوالدة وللمولود. اقتربت واقفة في الغرفة مستندة على الفرن تتأمل الوالدة وتسألها عن حالها. قفز إليها شوكت احتضن رأسها وقبل خدها وضمه إلى خده ورجلاه ترفسان فرحا. والداية تضحك وتقول:

ـ لا تقبل وجهي الأسود الضخم يا ولدي.. ستقبل عروسا كالقمر باذن اللّه.. وسأعيش حتى أولدها منك سبع عيال..!

ولم يفهم شوكت شيئاً لكنه أغرق في الضحك وأمه تنظر ساكتة.

تربّعت الداية على الفرن وأخذت المولود في حجرها. كحّلته ووضعت في أذنيه قطرات من زجاجتها الصغيرة. تغير لفائفه وشوكت يعجب للون جلده الأحمر وبكائه وعينيه الوارمتين.

دخلت زهرة تحمل وعاءاً به مرقة ساخنة. دعت لها الأم شاكرة وهي بادلت الأم الدعاء. الاثنتان متجهمتان كظيمتان وشوكت يرقبهما خائفا. خرجت زهرة والأم تتبعها بنظراتها. تطاولت برقبتها تتطلّع إلى وسط الدار في قلق. الداية أطرقت قليلا شاردة ثم قالت للأم:

ـ لا تخرجي من عتبة هذه الغرفة قبل أن يرش الملح...!

وردت الأم هامسة كظيمة:

ـ سأنتظر..!

وليلة السبوع بكبكت حلة الأرز باللبن على ألسنة النار في الكانون. طنّ موقد الجاز تحت حلة الحلبة في غرفة الوالدة. عيال كثيرون تكأكأوا حول الأم

يرجوها كل واحد أن تصنع له حجابا. تخيط أكياسا صغيرة من القماش تملأها من وعاء به كومة من خليط قالت عنه أم عساكر:

ـ إنهن السبع حبوب.. الملح والبن والحلبة والعدس والقمح والشعير والفول...! ثم قالت:

ـ لتعمر مخازن وليدنا بهذه الحبوب ولا يخاف الفقر..!

فإن الوليد صنع له حجاب كبير مليء من هذا الوعاء، وصنعت له كذلك مسبحة من حبات الفول الكبيرة المبلولة. ضحك العيال وتمنى كل واحد لنفسه مسبحة صغيرة أيضاً. الأم الوالدة تصنع رغبات العيال في دأب.

جيء بالقلّة ذات الأفرع وغرس في كل فرع شمعة. في الفوهة عصا ربطت عليها خرقة حتى صار لها هيئة رأس صغيرة. قالت الداية:

ـ نريد على رأسه عمامه... ليكون عالما في قلبه نور...!

والأم ردّت بهدوء وحزم:

ـ أريد على رأسه طربوشا.. أريده أفنديا..!

ولم يفهم شوكت شيئا. حلّ صمت. بعد ذلك وجدوا طربوشا وضعوه على رأس عروسة السبوع.

أُعطيت كل شمعة اسمًا وأُضيئت الشموع السبع وقيل إن الشمعة التي تبقى مضاءة بعد الأخريات ستعطي المولود إسمها. وضعت القلة متألقة بشموعها وعروستها في صينية بها ماء. جاءت العمات والأخوات المتزوجات وعيالهن وزوجة الأب وزوجة الأخ وامتلأت الغرفة بالزياط. أكل الجميع أرزاً بلبن ووضعوا في الماء قروشا تحية للداية. شكرتهم أم عساكر ودعت لهم. ناداها شوكت قائلا:

ـ إنظري إنني أضع في الماء قرشا كبيرا..!

ضحك الناس جميعا.

وفي هذا الزياط وغفلة النسوان لعب العيال وتشقلبوا. شوكت يحس دائمًا أن عيني أمه لا تغفلان عنه. قام الناس قبل أن تنتهي الشموع. بقي هو راقداً على بطنه يرقب الضوء وينتظر الشمعة التي ستبقى بعد الأخريات وتعطي أخاه اسمها؛ لكنه نام ولم يعرف ما حدث.

في الصباح زوّقت أم عساكر غربال المولود بالحلوى وأمسكته بين يديها تهزه والحلوى تتساقط منه يتخاطفها العيال والنسوان وهم يضحكون ويدعون للمولود. وزهرة تدق الهاون معلنة بدء السبوع. خرجت الأم من الغرفة، ثوبها أبيض نظيف وطرحتها بيضاء نظيفة. زاط شوكت من الفرح. أسلمت أم عساكر المولود لأمه وسارت أمامها في يدها مبخرة تدور في أرجاء الدار تبخّر وترش الملح وحبات الحلوى وخلفهما النساء والعيال يرددون وراءها:

برجالاتك برجالاتك

خاتم دهب في إصباعاتك

العيال والنسوان يتخاطفون حبات الحلوى ويضحكون متحاشين حبات الملح. جاب الموكب الدار ثم صعد السلم ولف السطوح ثم عاد أخيراً إلى الغرفة. إنتهى السبوع بذلك وعاد الناس إلى دورهم. خرجت الأم،جلست على المصطبة وعلى حجرها وليدها تنظر إلى الدار التي غابت عنها طويلا. جلس شوكت إلى جوارها فخوراً بها، لكن قلبه خائف.

وعندما حلّ المساء كانت واقفة في وسط الدار وعلى كتفها المولود قائمة منتصبة، نحيلة شاحبة لكنها قادرة. فُتح باب الدار على وسعه ودخلت البهائم العائدة من الحقل تملأ بحجومها وأنفاسها ورائحتها سعة الدار. زهرةوزوجة الأب راقبتا البهائم بلهفة وخوف ورفعتا أيديهما تدعوان وتبتهلان:

ــ يا ستار.. يا رب يا حامي.. يا ساتر..!

البهائم دخلت واحدة وراء الأخرى عبر وسط الدار إلى الزريبة. الفرخات والبطات فرّت مذعورة. شوكت خائف أن تدوس بهيمة على بطة بطيئة لا تستطيع أن تفرّ في الوقت المناسب. لا يزال يذكر البطة التي داستها الجاموسة فخرجت مصارينها من بطنها وهي راقدة تصاصي وتتلفت حولها مرعوبة. وقفت أم شوكت في الركن ترقب يقظة مزمومة الفم وعلى كتفها وليدها. تصور شوكت أن كل شيء في ايابه إنما يأوب لها، وأنها مالكة هذا العالم، وأنها لا ترحم مَنْ ينازعها فيه. نظر شوكت إلى أمه يتنازعه الفرح والخوف.

في الصباح التالي لم تسرح مبروكة، الأخت لأب، مع الأخ الكبير بالبهائم إلى الحقل. بقيت بأمر الأب لتعنى بشهرت المفطومة. حينما ثار الأخ الكبير قال له الأب:

ـ خذْ شوكت بدلها. . . !

سابت مفاصل شوكت خوفا من السروح بالبهائم مع الأخ الكبير، لكن هذا لوّح بيديه في وجه الأب:

ـ لا آخذه. . هذا الهش. . إنْ نهرته عملت أمه فضيحة. . !

والأب تحالم:

ـ سندبر إذنْ نفراً بالأجرة.

مشى الأخ معرضاً عن أبيه غاضباً يدمدم دون أن يرد. ظن شوكت أنه ربما يشتم أمه. لكن مبروكة لم تسرح معه على أي حال. قصت أم شوكت لها شعرها المليء بالقمل وحممتها وخاطت لها جلبابا جديداً وأعطتها منديلا للرأس زهريا مشغولا بالترتر. ألبستها في أذنها حلقاً ذهبيا كانت الجدة قد أهدته إلى حكمت الصغيرة. بدت مبروكة خلقا جديدا وأمها زوجة الأب جالسة على عتبة غرفتها تنظر.

هكذا بقت مبروكة الأخت لأب في الدار تحمل شهرت المفطومة. أصبح شوكت يلازمها طول النهار. هي بالنسبة له بضعة من عالم شرس غليظ لا يستجيب لمحاولته الملحة للانتباه. لكن شوكت لا يكفّ عن المحاولة. يتبع مبروكة طول النهار كظلها، يترضاها في صبر. يشاطرها لعباتها. لا يجرؤ من ناحية على أن يقترح لعبة أخرى. يدخل معها في خصوماتها مع بنات الحارة الأخريات. يعمل كل ما تهوى، ينظر في عينيها يبحث عن ومضة رضا واعتراف وهي ماضية لا تنتظره ولا تسأله ولا تعيره انتباها.

بعد أيام جاء الخال جودت والخالة حكمت لزيارة أم شوكت. الخالة حكمت حضنت شوكت وقبلته، وهو أحبها لكنه تملّص منها وجرى قافزاً. أرته قماش جلباب أحضرته له. تحسسه فرحاً مندهشا. الخال جودت أعطاه قرشين. أم شوكت ازدهى وجهها فرحا بزيارة إخوتها ، لكنها لم تبتسم. فرّقت من الحلوى التي أحضروها على أهل الدار. الخالة حكمت أخذت المولود إلى صدرها وقبلته. ثم فجأة تركت الجميع وأخذت شوكت من يده إلى بيت الأعمام قائلة:

ـ سأذهب أسلم على العمات. . !

والعمات أحطن بها وقبلنها. قالت الجده اللئيمة للخالة حكمت:

ـ ليت أختك طيبة مثلك..!

ضحكت الخاله حكمت وشوكت قبض على قلبه الخوف. لكن الكلمة ذابت في بحر الكلام. عند العصر أخذ الخال جودت شوكت من يده وذهب إلى الرجال الجالسين تحت النخلات في الجرن قبالة شرفة الدوّار. تفكّر شوكت أن العم والأخ الكبير لن ينصبا له اليوم آلة العذاب. كان خائفا لكنهم قاموا سلّموا على الخال مرحبين، وهو جلس بينهم. بدأ يشترك في الحديث. ثم بدأ يحكي بصوت عال. سكت الناس جميعاً وهو يحكي ويحكي. أدرك شوكت أن الناس لا تصدق الخال وخاف. لاحظ شوكت أن الرجال بدأوا يتبرمون واشتد خوفه. فجأة زعق العم محتداً على الخال:

ـ أنت تكذب..!

لاحت على وجوه الجميع ابتسامة ارتياح لزعيق العم. مات شوكت رعباً بهُت الخال، ثم بدأ يضحك خزياناً وهو يقول:

ـ أنا والله أقول الصدق..!

لكن العم يلاحقه:

ـ أنت تكذب..!

أُخرِس الخال تماما. حلّ صمت. رويداً رويداً بدأ الناس يخوضون في شؤونهم ونسوا الخال تماما. قام الخال يأخذ شوكت في يده. في الطريق قال له:

ـ هؤلاء ناس لا يفهمون..!

كان شوكت حزينا فلم يحر جوابا. عند باب الدار كانت مبروكة طالعة تحمل شهرت المفطومة نظرت بعينيها البنيتين الواسعتين. أحس شوكت بقلق عظيم حيث ظن أنها تعرف ما حصل. تمنى لو يترك خاله ويلحق بها، لكنه لم يفعل.

وفي صباح اليوم التالي صحب الأخ الأكبر وشوكت الخال جودت إلى المحطة. حكى الخال جودت طول الطريق ملوحاً بيديه. بقي الأخ الأكبر وشوكت صامتين. فجأة وبعد أن بعد الموكب الصغير عن القرية التفت الأخ إلى الخال زاعقاً بحدة:

ـ إسمع . . أنت مددت يدك على امرأتي أمس مساءً . . !

بهت الخال جودت. كاد شوكت يختنق رعبا. واصل الأخ الأكبر كلامه:

ـ لولا الفضيحة في دار أبي لضربتك بالحذاء أمام الجميع، لكنك نفذت بجلدك، فلا تعد ترينا وجهك أبداً . . !!

قال هذا ودار على عقبية عائداً. واصل شوكت طريقه مع الخال صامتين. وراءهم بعيداً أتت الخالة تعجها ثلّة من النساء والبنات.

وعندما عاد شوكت كانت أمه منهمكة في شغل الدار. لم تنظر ناحيته أو تسأله. وجهها أزرق كمسمومة. تُرَى هل عرفت كل شيء؟

مضى ينشد مبروكة حتى وجدها. جرى وراءها وهي تحمل المفطومة، يشترك معها في لعبها، يعجب باختراعاتها الشيطانية، يطيعها تماماً، لكنها تعسف به. رأى في عينيها تلك الاحنة المرة. في هاتين العينين البنيتين الكبيرتين. يتمنى لو يفهم لكن ذلك عصي، يتمنى أن يموت.

كل آنٍ ترجع مبروكة إلى أم شوكت زاعمة أن شهرت جائعة، أو أنها تريد قطعة من السكر، أو قصقوصة من القماش لعروستها. صعدا السلم معاً. رأيا معاً أم شوكت جالسة إلى ماكينة الخياطة أمام غرفتها على سطح الدوّار . منحنية على القماش يهتز جسمها برتابة على ايقاع وطئها مداس الادارة. مع صوت الماكينة العالي سمع شوكت امه تغني. وإذْ كان لم يسمعها أبداً تغني فقد أدهشه غناؤها وأراد أن يضحك. لكن الخوف عصر قلبه فجأة. أهذا غناء أم عويل. وإذا أقبل على أمه رأى عينيها محمرتين. رمق شوكت مبروكة. ليس في عينيها أثر للرحمة. تمنى لو أنها لم تر أمه على هذا الحال. نظرت الأم إليها وكفّت عن الغناء وواصلت عملها صامتة.

إرتكن شوكت على حافة لوح دولاب الحياكة. الاهتزاز الرتيب يدبّ في بدنه. يتأمل صامتاً صورتهم في مرآة صوّان الملابس المجلوّة. يجول بعينه في غرفة أمه. السرير النحاسي الكبير وفرشه الأبيض النظيف. الكرسيان الكبيران والمتكأ والحصير الأبيض الجديد. طراوة عصرية تأتي من شبابيك المشربية. شوكت شارد حالم.

تململ جودت الرضيع في فراشه. كفّت الأم عن الحياكة وأخذت الطفل

إليها. شوكت يتأملها ويتفكّر في شرودها. هي بدورها تتأمل جودت ثم تقول هامسة.

ـ آن لك يا جودت أن ترى جدك وجدتك..!

فرح شوكت وعرف أنهم سيسافرون إلى الجد والجدة في القرية البعيدة. تقافز فرحاً. ثمّ سأل أمه قلقاً:

ـ هل ستأخذينني معك يا أمي..؟

وردّت الأم كالهامسة وهي بعد تتأمل في جودت:

ـ نعم... سآخذك معي..!

تقافز شوكت يصيح من الفرح. رمقت الأم مبروكة، التي كانت غير مبالية بما يجري وقالت:

ـ وسنأخذ مبروكة أيضاً معنا..!

وفي الأيام التالية لازم شوكت ومبروكة الأم الجالسة إلى دولاب الحياكة. حاكت لشوكت جلباباً لطيفاً من القماش الذي أهدته إليه الخالة حكمت. قال شوكت لأمه وهو يرى القماش يقطع ويخاط ويأخذ رويداً شكل الجلباب:

ـ أمي.. كنت أريد جلبابا فلاحيا بأكمام واسعة..!

ردّت الأم كالحالمة وهي منصرفة إلى عملها:

ـ أنت لست فلاحا.. ولن تكون.. ستكون أفنديا عظيما..!

صمت شوكت محتارا. رمق مبروكة متوجساً. لا يدري شيئا، لكنه فرحان بسفره إلى جديه في القرية البعيدة.

حاكت الأم ثوبا لمبروكة، وثوبا لحكمت الصغيرة، وثوبا لشهرت المفطومة، ثم سوّت الأحذية ونظفتها، وشوكت يرقب هذا الترتيب بفرح غامر. طار إلى أبيه في شرفة الدوّار متباهياً بجلبابه وحذائه وجوربه. غصّ بريقه إذْ رأى أن العم والأخ الكبير كانا هناك. قفز ولبد في جنب أبيه. سأل العم الأب محتدا:

ـ لماذا يسافر هذا أيضاً... أيظل هكذا مربوطاً بذيل أمه كالحمل..؟

قبض الخوف قلب شوكت وغاص لونه. روحه تهفو إلى السفر. يكاد يطير

شوقاً. قد يموت لو حاشوه هنا. تعلّقت كل حواسه برد الأب الذي قال:

ـ خلّه يسافر.. يتعلم الواحد من السفر أكثر مما يتعلم من فقيه الكتّاب..!

ثم صمت قليلا وتكلم مرتلا كلماته:

ـ خلّه يسافر.. خلّه يسافر..!

لا يفهم شوكت شيئا، لكنه يهتز مع الايقاع الرصين. كلمات أبيه تعجبه دائما. هى تنتهي دائمًا بالعم أو الأخ الأكبر إلى الصمت التام الكظيم. تململا في مكانيهما ضيقاً. أخرج الأب ساعته من جيبه. نظر فيها وقال لشوكت:

ـ إنطلق الآن.. سلّم لي على جدك وجدتك..!

وطار شوكت كالحمامة.

خرجت أم شوكت تحمل جودت الرضيع وفي يدها سلتها. خرجت مبروكة خلفها تحمل شهرت المفطومة. مشى وراءهما شوكت يمسك بيد حكمت. مشى الموكب الصغير إلى المحطة لا يصحبه أحد ولم يودعه أحد.

*

بقي شوكت جامداً في فراش نومه عاجزاً عن تحريك عضو من أعضائه، يحدِّق في مربع الشباك والقهر يعصر قلبه. إن هذا هو شباك غرفتهم في دار أبيه. هم إذن لم يسافروا . الأمر كله كان حلما جميلا. لا يحول بصره عن المربع المشعشع بالضوء والخناق يضيق على قلبه رويداً رويداً يتخلّق أمامه رسم آخر هو رسم الشباك في بيت الجد. إنهم في بيت الجد إذنْ. يمتلأ قلبه بالفرح. يستكمل صحوه ويهب قاعداً.

رأى مبروكة وحكمت وشهرت بعد نائمين على المرتبة التي فرشتها لهم الخالة حكمت على الحصير في الأرض. عفت الصغيرة ما زالت أيضاً نائمة على سرير الخالات حكمت وشهرت. ثمة كنبة نامت عليها أم شوكت مع جودت الرضيع. نزلوا جميعا وتركوا العيال نائمين. قام شوكت محاذراً . فتح بهدوء الباب بين غرفتهم وغرفة الجد والجدة. السرير الهائل والدولاب بمرآته الكبيرة ولا أحد هناك. أغلق شوكت الباب مرة أخرى بسرعة. مشى إلى باب الغرفة الآخر. تسلل منه إلى الصالة. الخالة شهرت جالسة على كنبه وفي يدها قماش تطرزه. على رأسها منديل مشغول ووجهها جميل ويداها جميلتان. أحبها شوكت. كان سمع في البلد ما يحكيه الناس عن أن أباه رأى أمه جالسة على كنبة في بيت جده تطرِّز فـأحبها وخطبها من أبيها . أحب أمه وأحب خالته شهرت.

رفعت خالته شهرت عينيها إليه وابتسمت قائلة:

ـ صح النوم..!

لم يعرف ما يقول. لم يسمع هذه الكلمة قبلا. بقي صامتا. تسحب كقطة ولبد جنب خالته.قالت له:

ــ سأتم هذا حالاً وأقوم أغسل لك وجهك... عسى يصحو الآخرون أيضا..!

بقي شوكت صامتاً. بعد قليل أصابه الملل.بدأ يحرك رجليه ويغني. ثمّ قام متسللا. نظر من فرجة الباب الموارب. ما زال العيال نائمين. تسلل من باب الصالة إلى الشرفة. تسلّق السياج وأطل على الحديقة تحتهم. عم طلبة يعمل بفأسه. السيدة العجوزة التي تسكن تحت تلف رأسها بشال وتجمع عيدان الملوخية. فجأة التفت عم طلبة إلى أعلى ورأى شوكت.زعق فيه:

ــ إرجع يا ولد..!

رجع شوكت. لم يزعجه الزعيق، بل ملأه ضحكا. كانت الخالة شهرت قد سمعت أيضاً. قامت. قابلت شوكت داخلاً. أخذته من يده. عبرا باب الصالة إلى طرقة طويلة فيها باب يؤدّي إلى السلم. بعده بقليل باب الحمام. من وعاء به ماء غسلت له وجهه وهي جالسة.وركاها عاريان وناصعا البياض. حبكت له تقيته على رأسه وزرت له حذاءه وقالت له:

ــ ماما في غرفة الفرن...!

أعجبته الكلمة ، تمنى لو ينادي أمه ماما. إنه ينادي جدته (ستي) مثل الخالات. لكن أن ينادي أمه (ماما) إن ذلك قد يجلب عليه في البلد محنا.

نزل السلم الحجري جريا. من الباب خرج إلى الفناء الفسيح. لمح غرفة الفرن على البعد.جرى نحوها كالسهم. كانت الجدة تبكي وجسدها يرتجّ على فحماتها. سكت تماما. ينقل بصره بينها وبين الحلّة التي تغلي على الكانون وتفوح منها رائحة الطبيخ. الأم والخالة حكمت جالستان إلى الجدّة على حصير في ركن الغرفة. الفرن في الركن الآخر صغيرو وأنيق. من السقف تتدلى أشراش البصل والتوم ، وفي الأركان صنوف الخزين، وعلى الحيطان رفوف محملة بأصناف حلل الطبيخ. وثمة رشاقة أنيقة من الخشب معلق عليها أصناف من المغارف والمقاصيص وتحتها مناشف نظيفة للأيدي.

الجدة تقول من خلال فحماتها:

ـ تريد أن تلد عند أمها يا روحي..!

وعند هذه الكلمة يزداد جسمها ارتجاجاً، والخالة حكمت تنظر صامتة. تقول أم شوكت:

ـ لا تسرفي على نفسك يا بنتي..!

لكن الجدة تزداد بكاءاً . شوكت لا يفهم شيئا. لكنه يتصور واحدة كأنها أمه، بطنها هائل بالحبل تتألم، ترقد ذليلة على زكيبة مفروشة في الأرض. تريد أن تأتي هنا لتلد، ولكنها لا تستطيع.

يسأل أمه:

ـ مَنْ هذه يا أمي..؟

وتنهره أمه:

ـ اسكت..!

وتواصل الجدة:

ـ وزعق أبوك حتى سمعته سبع بلاد، وقال: لن تدخل بيتي أبداً، لقد مرّغت شرفي في الوحل..!

زاد بكاء الجدة حتى كاد يكون تشنجاً. وبلغ ذهول شوكت مداه. لم يستطع أن يفهم لماذا تفعل السيدة هذا. تصوّرها تجري تثقلها بطنها الهائلة. عيناها مليئتان بالرعب والذل، لكنها تكبش وحلا من الأرض وتلقي على جده الذي يرفع يديه ليحمي عينيه ويصرخ أنها لن تدخل بيته أبداً. استغلقت الأشياء على شوكت تماماً. واصلت الجده:

ـ والرجل يا بنتي تزوّجها على سنة الله ورسوله يوم وصولها إليه، قسيمة الزواج أعطاها لأبيك والتاريخ فيها..!

ثم أصبح بكاؤها نحيبا. أعولت عويلا موجعا وهي تلوّح بأصبعيها الشاهدين.

ـ آه يا بنتي، وأنا هنا أبكي على صرة هدومها. لم تأخذ شيئا معها يا حبة عيني.. تركت مكانها في الفراش بارداً..!

خاف شوكت تماماً. تعلّق بثوب أمه ينعب:

ــ أنا جائع يا أمي..!

قالت الجدة للخالة حكمت بحزم رائق واضح:

ــ اعطه القونصة وشيئا من الأرز يا حكمت..!

والخالة حكمت قالت:

ــ حاضر..!

وكشفت عن الحلّة التي تهدر وفيها بطة هائلة، لا بدّ أنها الذكر الذي أحضرته الأم معها في سلة الزيارة. السلّة لا تزال قائمة في الركن. تعرّف عليها شوكت. وضعت الخالة أمامه صحنا فيه أرز وعليه القونصة الهائلة. يأخذها في يده ثم يلقي بها لشدة سخونتها، يملأ ملعقته أرزاً وينفخ فيها زمنا طويلا قبل أن يتناولها. كفّ عن متابعة حديث الجدة الذي أصبح همسا وكرّس نفسه على طعامه.

غسلت له الخالة حكمت يديه في وعاء وكبّت الماء أمام غرفة الفرن في الشمس. جفف يديه في المنشفة. شغل قليلا بمربعات القماش الحمراء. ترك المنشفة وقال لأمه:

ــ سأذهب أوقظ مبروكة وعفت لنلعب.

وردّت الأم بحزم:

ــ لا توقظ أحداً، إلعبْ وحدك حتى يصحوا من نفسهما..!

خرج إلى الفناء المليء بالشمس. لا يدري ماذا يفعل. مشى بحجل حتى السور. تعرف على حجر كبير مركون على الحائط. تذكّر هذا الحجر. قفز.وقف عليه وبسط ذراعيه على طولهما ملصقاً كفيه بالحائط. ضحك جداً. لقد طالت قامته وأصبحت يداه تطولان أكثر. التفت ينظر ما إذا كانت مبروكة وعفت قادمتان لتريا كَمْ كبر. لكنهما لم تأتيا.

تمنى لو يستطيع أن يطلّ من فوق السور على الخارج. شبّ على أطراف أصابعه محاولاً، لكن المحاولة لم تجده. نزل مشى بجوار الحائط حتى باب السور الخشبي. باب متخلع العوارض، دفعه انفتح. حينما رأى امتداد الخلاء أمامه

صفّرت في أذنيه الرياح واشتهى أن ينطلق. رأى على البعد الشونة حيث يعمل جده. عزم على أن يروح هناك.

رأى الجدعان الكبار ومعهم خاله جودت يلعبون كرة القدم في أرض السوق. وقف قليلا ليرى أنه شيء يدهش هذا الذي يلعبونه. يجرون يلاحقون الكرة. يرفسونها وينطحونها. يزعقون ولا أحد يعرف ماذا يجري. الكرة تطير من الشرق إلى الغرب كالحمامة. يطير شوكت فرحاً حينما يرى الكرة محلّقة غائبة في السماء والكل مشدوه متوتر ينتظر هبوطها.

كرة الحكش عندهم لا تحركها ضربة أعظم محكاش أكثر من قصبتين مصنوعة من حبال البتيل المضفورة طبقات بعضها فوق بعض. كان شوكت يتمنى أن يكون له محكاش. ولقد عاين كل فروع أشجار السسط التي رآها في حقول الزمام عندهم، وامتحنها ببصره امتحانا وثيقا. كان يتمنى أن يجد محكاشا مستقيم القبضة جيد العقفة، وأن يشترك مع الرجال الأشداء في الليالي المقمره في لعب كرة الحكش. حيث يقف هؤلاء الرجال صفان متقابلان طويلان. قد خلعوا عنهم الجلابيب وتعمموا بها حماية لرؤوسهم من الضربات الطائشة. والكرة ثقيلة تسرب بين الصفين كبطة كسيحة، وكل صف يحاول أن يوجّه سيرها ناحية مرمى خصومه. تصطرع المحاكيش بعنف. ويصرخ الرجال كأنه يوم القيامه. وما ينتهي اللعب حتى يكونوا غرقانين عرقاً مائتين تعباً، والعيال ينظرون باعجاب وولهٍ.

لكن هذه الكرة تطير كحمامة. سوف يدع خاله يعلمه اللعبة. وسوف يشتري كرة يأخذها معه في ايابه إلى البلد، وهناك يدعو العيال ليلعبوا معه. سيدعو فقط مَنْ يحبه ويطاوعه طالما الكرة كرته، فإنه سيطرد مَنْ لا يحبه أو يناوئه. لكنه ظن أن الخال لو رآه الآن فإنه سيؤنبه ويعيده إلى البيت. أسرع مبتعدا.

الشونة على البعد. تذكر صف النباتات على حافة القناة الصغيرة بحذاء السياج ذي الأسلاك الشائكة، وباب الشونة الكبير، والكشك الخشبي على اليسار حيث مكتبة جده ومساعده والظلة الهائلة على اليمين حيث الميزان الكبير، والظلة الأخرى البعيدة حيث مربط الحمير أو الجمال والخيل، والأسلاك الممتدة على أعمدة عبر الشونة كلها ومعلّق بها شخاشيخ لافزاع الطيور.

كل شيء كما تركه في المرة السابقة، زحام الناس حول الميزان وزعيقهم

وجدلهم. الرجل يزن وقلمه في أذنه، ويقيد كل وزنة في دفتره. الحمّال العجوز لم يتغير، على ظهره برذعة من الخيش كبرذعة الحمار يضحك عليها شوكت. يحمل الرجل الزكائب الموزونة ويمضي بها إلى الرصة.

أحب شوكت هذا الرجل وتذكر كم سرّته مرات حكاياته اللطيفة.

في مكتب جده سمع أصوات الرجال وضحكاتهم . تردد قليلا لكنه دخل لم يحسّ به أحد. دار من خلف ظهور الجالسين وأقبل على جده أخذ يده وقبلها. نزع الجد يده مفزوعاً، لكنه عرف شوكت فتنهد مسترداً أمانه:

ـ آه . . !

ثم قدّم شوكت للحاضرين:

ـ ابن بنتي. . !

وعلّق بعضهم:

ـ ما شاء الله. . !

وواحد منهم نحيل شديد السمرة له شارب مبروم وعمامة أنيقة قال موضحاً تقديم الجد:

ـ أبوه الحاج علي من أكبر عمد الغربية. . !

دُهش شوكت. أبوه ليس عمدة. العمودية في العائلة الأخرى التي تناصب عائلتهم العداء والحقد. لم يدر أيفرح بكلمات الرجل، أم يحزن أن أباه ليس عمدة. لم يعرف. لكن هذا الرجل متواطىء بشكلٍ ما. يتأمله شوكت، والرجل نادى عليه:

ـ تعالى يا ولد. . !

مشى شوكت ناحيته. أخرج الرجل من صراره حافظة نقود ضخمة تناول منها خمسة قروش أعطاها لشوكت ثمّ قبله في خده. وضع شوكت القروش في جيبه، وقبلة الرجل لزجة رطبة على خده، والجد يرقب ذلك في ضحك مسرور.

وفجأة انصرف الجميع عن شوكت حينما سأل واحد من الحاضرين الجد شوكت أفندي:

ـ هل ترد جمالي بأحمالها يا شوكت أفندي.. وأنا كلّي عشم فيك..؟

وقال الجد ضاحكا:

ـ هذا تراب يصادف الانسان فيه بعض حبات القمح..!

وضحك الحاضرون بينما ألحّ الرجل:

ـ قلمك يجعل من التراب مرجاناً يا شوكت أفندي..!

ثمّ أخرج حافظة نقود ضخمة يلوح بها ويقول:

ـ وأنا محفظتي تحت أمرك..!

وضحك الرجال وضحك شوكت أفندي. لم يفهم شوكت الصغير شيئاً، لكن الجد يفرط في الضحك حتى تبدو أسنانه التالفة ويقول:

ـ سيكون كل شيء كما تريد..!

ازداد الأمر على شوكت غموضاً فانصرف عنه يطلّ من الشباك. الشونة ماثلة الامتداد تتكدّس فيها زكائب القمح في صفوف منتظمة غير متناهية. سحب من العصافير تشيل وتحط. تقف على أسلاك الشخاشيخ، ثم تنزل على زكائب القمح بمناقيرها الصغيرة. تسلل شوكت لم يبال به أحد. وقف على الباب قليلا. القبّاني ترك الوزن وجلس على كرسي قدام الميزان. قلمه في أذنه، يقبض على دفتره بيديه وحوله ناس يتكلمون معه. ذهب الحمّال العجوز إلى الزير في ظل الشجرة، اغترف لنفسه بأناة كوزا وبدأ يمتص الماء على مهل. مشى شوكت ناحية الرجل. تقرفص قبالته، الرجل يرفع رأسه يتنفس ثم يعاود الشرب وينغّم امتصاص الماء بأناة وانصراف. سأل شوكت كأنه يحلم دون أن يطارده بعينين فاحصتين:

ـ متى جئت..؟

وقال شوكت:

ـ أمس..

وسأل الرجل:

ـ أبلدكم أحسن أم بلد جدك؟

بُهت شوكت ولم يعرف ماذا يقول. تفكّر قليلاً ثم أجاب:

ـ أحب الاثنين.

وقطع كلامها أن أقبل عليها رجل على فرس. ترجّل الرجل وتقدّم ناحيتها مسلّما. قام الحمال العجوز لما رأى وراء هذا الرجل جملين يحملان أربع زكائب قمح. الجمال مذعورة عيطة العيون تشرئب برؤوسها تقاوم جذب المقاود وتبغّم بُغاماً باكياً، والرجل صاحب الفرس ما زال قابضا على لجام فرسه يرقب جماله هادئا ويخبط بخيزرانته رفيقاً على طرف جلبابه السابغ. أنيخت الجمال فهجعت باركة. عندما سكن بغامها اتضحت أصوات الرجال عند الجد وحديث الناس حول القباني وزقزقة سحب العصافير. شوكت ما زالت عيناه معلّقة بالرجل. الفرس تخبط الأرض بحوافرها الكبيرة وتطوّح ذيلها تطرد عنها الذباب. يا لها من فرس رائعة كأنها سعيدة أن تكون في كنف صاحبها.

الرجل في وجهه وسامة وله شارب صغير أشقر وعليه جلباب أنيق من الكشمير. التقت عينا الرجل بنظرات شوكت المتأملة، خجل هذا وانصرف يراقب الحمّال العجوز يعتل زكيبة على ظهره مثقلة حتى ترطم قدماه الأرض مرة بعد مرة. شوكت يشفق على الرجل في عسره، يقيس المسافة لحد الميزان بعينيه والرجل يقتطع منها قطعاً صغيرة بخطواته القصيرة الثقال.

لكن الرجل صاحب الفرس سأله:

ـ ما اسمك؟

ورد شوكت:

ـ اسمي شوكت!

وحلّ صمت لكن عيني الرجل ظلتا تتساءلان. أحسّ شوكت أن عليه أن يقول شيئاً. قال:

ـ جدي شوكت أفندي!

التساؤل الملح في عيني الرجل يتوارى خلف سحب غامضة. يقع شوكت في الحيرة. يثرثر الكلمات خلوصا من الورطة:

ـ نحن هنا في زيارة جدي.. ! حضرنا بالأمس فقط.. !

عتل عمران العجوز آخر زكيبة من على الميزان ماضياً بها إلى الرصة. والرجل صاحب الفرس عقد لجامها في السرج ومضى ناحية القبّاني. الفرس حمحمت وحفرت بحافرها في الأرض كأنما لا تريد أن يبتعد عنها صاحبها. تأمل شوكت ظهر الرجل صامتاً. رأى أنه رجل طيب.

ظهر الرجل الأسمر ذو الشارب واقفاً على عتبة باب المكتب ووراءه الجد شوكت. تحسس شوكت قبلة الرجل على خده، ما تزال لزجة مبلولة. نادى الرجل الأسمر ذو الشارب على العجوز زاعقاً ملوِّحا. كان ثمة قفّة هائلة قاعدة في ظل الكشك، أشار إليها الرجل محدِّثاً العجوز:

ــ احملْ هذه إلى بيت شوكت أفندي.

العجوز أومأ موافقاً، وضحك الجد، وتقدم شوكت حتى أصبح واقفاً في المشهد. واصل الرجل كلامه:

ــ وسلِّم على السيدة الكبيرة، وقلْ لها هذا من الحاج سرحان..!

قال العجوز وهو يعتل القفة على كتفه:

ــ حاضر

أضاف الجد:

ــ وخذ شوكت الصغير معك يا عم عمران..!

مضى عم عمران مثقلا بالقفة. تأمل شوكت قدميه الحافيين المفرطحين، تنفرشان سوداوين تاركتين آثارهما على السكة واحداً بعد الآخر. ثرثر العجوز من الحمل كأنما يتوجّع:

ــ هذا الحاج سرحان واسع الثراء، عنده أطيان وخيل وجمال، وعنده ثلاث نساء. هو يغمر جدك بالهدايا... اللّهم الطف..!

لكن شوكت الصغير كان مشغولا بالرجل صاحب الفرس. يتصوره الآن يمضي بفرسه بعيداً. سأل عم عمران:

ــ من هذا الرجل صاحب الفرس الذي تكلّم معي عند الشجرة..؟

ورد العجوز من تحت القفة مستغربا:

ـ ألا تعرفه..؟

أجاب شوكت دهشا:

ـ لا .. لا أعرفه..!

تكلم عم عمران كأنه يردد بكائية:

ـ لقد كان عريس أمك.. قُرئت الفاتحة وجهِّز الجهاز.. لكن أباك جاء من خلف البحر راكباً حصانا مهولاً ويسوق أمامه سحبا من الأغنام يبحث لها عن مرعى. كان ذلك في قرية أخرى لكنني أعرفه.. آه هذه القفة ثقيلة. قفة الحاج سرحان.. لقد خضَّ العرس.. وجدك شوكت أفندي طرد ابن شقيقته العريس.. آه من هذه القفة.. اللّهم الطف..!

قفز قلب شوكت في صدره من فرط استثارته. كادت الدموع أن تتفجر في عينيه، لا يدري أفرحاً أم رعباً أم سخطاً، لا يدري.. لا يدري. دفع عم عمران باب السور ومضى داخلاً ميمِّما شطر غرفة الفرن يسبقه شوكت جارياً ناحية أمه. قامت الجدة بجرمها العظيم تعين الرجل. حطَّ هذا حمله وهو يقول:

الحاج عمران يرسل لكم هذا الود ويسلِّم عليكم..!

رمقت أم شوكت القفة بعينين فزعتين وهي تشدّ ابنها إليها بعنف. خاف شوكت من تغير وجهها. قبض على قطعة النقود في جيبه. أخرجها يعرضها على أمه مرتجفا:

ـ أعطاني هذه أيضاً يا أمي..!

قبضت على ذراعه تكاد تهشمه. تهمس في أذنه غاضبة غضباً ينتفض منه جسدها.

ـ تأخذ النقود من الناس هكذا..؟

رد شوكت ملهوجاً مرتاعا:

ـ كان جدي شاهداً..!

ربما أدركت الأم أنها أسرفت على ولدها، خففت قبضها على ذراعه ولانت نظرتها له. عرف شوكت الحنان في عيني أمه. تمرغ في يدها التي امتدت تتحسس رقبته تحت جلبابه وهو يتخفف رويداً من الفزع الذي تلبسّه. الجدة قلبت

محتويات القفة بانصراف تام. تذكر شوكت وقال مندفعا:

ـ رأيت في الشونة رجلا كان سيتزوجك يا أمي..!

بهُتت الأم وشحب وجهها كميتة. لم ير شوكت وجهها هكذا أبداً. تصورها ستموت من فورها. تراجع زاحفاً على الحصير مأخوذاً. رفعت الجدة عينيها إليهما متنبهة على كلمات شوكت. حوّلت أم شوكت وجهها متفادية نظرات الجدة. كلّمت شوكت بصوت كالفحيح:

ـ قمْ إلعب مع العيال..

كان شوكت في زحفه قد بلغ نهاية الحصير. قام واقفاً يتلفت مخبولاً، ثمّ أطلق ساقيه للريح. حينما أصبح في وسط الفناء الواسع الصامت الممتلىء شمساً أحسّ بالأمان. تفكّر في كل شيء، في الرجل صاحب الفرس، في الحاج سرحان، في عم عمران، في الجد شوكت أفندي، تفكّر مرات ومرات ولم يستطع أن يهتدي إلى شيء. لكن حجم أقدام عم عمران الهائل بدا له عجيبا. إنه لا يحب الحاج سرحان، ولذلك فإن شوكت لا ينبغي أن يحبه. تصور الرجل صاحب الفرس يمضي مختفياً في دوائر سوداء مؤطرة بالأخضر موجوده في قلب وهج الشمس هذا. مكانه في مركز الدائرة تبقى قطرة حمراء أخّاذة. على شوكت ألاّ يفكر فيه بعد ذلك أبداً.

سأل نفسه متى تصحو عفت. لقد أحبها من كل قلبه، شعرها الذهبي، شرائطها الزرقاء وخدودها الوردية وجوربها الأبيض. تمنى لو كان معه شيئاً ليعطيه لها، لو كان يعرف حكاية طريفة ليحكيها لها. حكى لها عن دارهم في البلد فدهشت. قال لها:

ـ تعالي عندنا..!

قالت:

ـ أخاف

قلبه ينقبض حين يفكر أن مبروكة لا تحب عفت. لم يدر ماذا يفعل أو ماذا يقول. تذكّر أن مبروكة كلّمتها أمس:

ـ منزلكم كبير...!

وعفت ردّت:

ـ إنه ليس منزلنا..!

دُهشت مبروكة ودُهِش شوكت أيضاً. سألتها مبروكة:

ـ منزل مَنْ..؟

وقالت عفت:

ـ منزل أبو سليمان..!

وسألت مبروكة:

ـ كيف تعيشون فيه.؟

قالت عفت:

ـ نؤجره..!

لم تفهم مبروكة ولا شوكت، لكن مبروكة سألت شامتة:

ـ ولو طردكم الرجل منه.. أين تذهبون..؟

سكتت عفت محتارة، تنظر إلى شوكت غير فاهمة وهو حزن من أجلها. تمنى لو تحبها مبروكة، لكنه لم يدر ماذا يفعل.

كان العيال يلعبون في فناء آخر متصل بفناء هذا البيت يفصل بينهما سور واطىء. جرى شوكت إليهم. لَمّة العيال حول مبروكة مثل دجاجات حول ديك تياه. لم تعر مبروكة شوكت اهتماماً. وقف مرتبكاً لا يدري ماذا يبدأ. أقبلت عليه عفت:

ـ أين كنت..؟

أحسى شوكت بثقل قلبه. في عقله اختلاط عظيم، لكنه قال:

ـ كنت في الشونه..!

ابتسمت له عفت صامتة ودودة. أراد أن يريها قطعة العملة التي في جيبه،

لكنه خاف لسبب غامض. يتحسس القطعة في جيبه وهـو ينظر لها صامتاً. زعقت فيها مبروكة تسب إهمالهم لأدوارهم. رأى شوكت داراً قد رُسِمت على الأرض وعروسة وعريس وأوعية طبيخ. اندمج مع العيال في اللعب مستغرقين حتى سمعوا الخالة حكمت تنادي عليهم من الشرفة ورأوا المساء قد حلّ. تحسس شوكت جيبه فلم يجد قطعة النقود. كربه الضيق والخوف.

حينما دخل العيال الثلاثة من باب الشقة أدركوا أن ثمة شيئاً غير عادي يجري. من غرفة الجلوس يأتي صوت ضيوف كثيرين يتكلمون ويزعقون ويضحكون. من غرفة الكرار يأتي صوت جماعة كبيرة من مواقد الكيروسين. وقف العيال قليلا مرتبكين ثم تبعوا مبروكة ناحية غرفة الكرار.

الجدة محمرة الوجه مشمرة الأكمام منهمكة تماماً. رائحة الطبيخ زاعقة. حلل هائلة على الأرض وأخرى على المواقد الطنانة. أم شوكت في الركن عاكفة على نقاوة الأرز. الخالة حكمت تلبس جلبابا جميلا، مكحولة تضع في شفتيها أحمراً وتضحك جداً، شهرت تحمل المفطومة وتلاعبها. جرت عفت لبدت في جنبها. نظر شوكت إلى مبروكة التي تتأمل ما حولها بنظرات سريعة فاحصة.

فجأة تضع الجدة يديها على عينيها ويخضّ جسمها البكاء وهي تحدث أم شوكت:

ــ لعلّها الآن تعاني من المخاض يا روح أمها..!

أم شوكت ترد كالهامسة:

ــ خففي عن نفسك يا بنتي.

شوكت يقترب من الخالة شهرت سائلاً:

ــ مَنْ هذه يا خالتي..؟

وتنقضّ عليه الجدة زاعقة باجابة شرسة:

ــ خالتك امتثال يا حبيبي..!

يصفرّ وجه أم شوكت تجمد يداها على صينية الأرز في حجرها. أدرك شوكت أنها لو كانت قريبة منه للكزته، بادلها النظر خائفا. صمت الجميع إلّا طنين المواقد العالي كأنهم شياطين يتناحرون.

فرغت أم شوكت مما في يدها بسرعة. أسلمت الصينية إلى الجدة. قامت تنفض الأرز المتجمع في حجرها. مالت حملت جودت الرضيع الذي كان نائمًا على فرشة بجوارها وأخذت حكمت الصغيرة بيدها وطلبت من مبروكة أن تحمل شهرت المفطومة ثم ساقت العيال جميعهم إلى الغرفة. هيأت الغرفة للنوم وأنامت جودت الرضيع. بقيت شهرت المفطومة تنز قليلا نامت وكذلك حكمت الصغيرة.

مبروكة وشوكت وعفت جلسوا في دائرة. مبروكة سمّت شوكت جَدْياً وعفت عنزة وسمّت نفسها العجوز صاحبة الدار. السبابات الثلاث وضعت على الأرض. مبروكة تحرك سبابتها قدماً أو تراجعاً إذا سرحت إلى الحقل أو رجعت إلى الدار. تفعل ذلك وحدها أو تأمر الجدي أو العنزة أو هما معاً أن يصحباها. مَنْ أخطأ في فهم أمرها أو تلكأ في تنفيذه خبطته على يده ويكون لذلك ضحك وكركعة.

رافق شوكت أمه، الأم مطرقة شاردة مهمومة. ضجة الضيوف في غرفة الجلوس تزداد توهجاً. وشُ مواقد الكيروسين يزداد إلحاحا . عاد شوكت إلى أمه فوجدها ما زالت مهمومة مكروبة. لم يستطع أن يفهم شيئا.

فتح باب الغرفة ودخلت الخالة شهرت تلبس جلبابا أسود وطرحة. قالت لشوكت:

ـ تعال معي نشتري شيئا من الدكان..

قال شوكت:

ـ نعم يا خالتي..

والخالة قبلت عفت الصغيرة وقالت لها:

ـ سأحضر لك حلوى معي..!

ثم ربتت رأس مبروكة وقالت:

ـ وأنت أيضاً..!

شوكت جرى محاولاً اللحاق بالخالة شهرت على السلم. عند باب الشقة التي تحتهم فتحت شراعة الباب وأطلّ وجه شاب. جفلت الخالة شهرت وللحظة بقت مكانها لا تريم. شوكت تسمّر في مكانه. تكلم الشاب وابتسامته تُرى في العتمة.

ـ مساء الخير..

ردّت شهرت مرتبكة:

ـ مساء النور..

وسأل الشاب:

ـ إلى أين..؟

وردّت شهرت وهي تتحرك نازلة ممسكة بيد شوكت:

ـ سأشتري شيئاً من الدكان.

وضحك الشاب قائلا:

ـ هل تشترين لي حلوى معك..؟

وردّت شهرت وهي توليه ظهرها خارجة تسحب شوكت من يده:

ـ إنك لست صغيرا..!

سأل شوكت:

ـ مَنْ هذا يا خالتي..؟

قالت مستعجلة:

ـ بن مصطفى أفندي أبو سليمان صاحب البيت.. لا تقل لأحد أنني كلمته..!

ردّ شوكت متواطئاً:

ـ حاضر يا خالتي:

طول السكة وشوكت منشغل بما حدث. لم يع من الطريق شيئاً في الذهاب ولا في العودة. كانت الشراعة ما تزال مفتوحة والولد هناك. كلم شهرت:

ـ هل أحضرت لي الحلوى..

وسألت شهرت دهشة وصوتها يشي بالسرور:

ـ ألا زلت هنا..؟

في هذه اللحظة انصفقت الشراعة مغلقة والخالة وشوكت التفتا وراءهما وخيزران الخال نزلت على شهرت مصفّرة كأنما قسمتها نصفين. انكفأت على وجهها وشوكت أغمض عينيه وصرخ رعبا. حينما فتح عينيه كانت أمه وجدته وخالته حكمت يرفعون شهرت ويسندونها لتصعد السلم والخال واقف يشير إلى الشراعة بخيزرانته ويقول للجدة:

ـ كانت تكلم هذا الولد..!

قالت له الجدة بحدة:

ـ اغربْ عن وجهي وليحرق الّله قلبي عليك..!

أُرقدت شهرت على السرير منكفئة على وجهها عارية تماما. جسمها أبيض وردي اللون تقده العصا نصفين بخط أزرق فيه قطرات دم. وضعوا منديلا مبلولا تحت أنفها الدامي. دهنت الجدة ضربة العصا بالزيت. بدأت فجأة تبكي يخضّ جسمها البكاء وهي تقول عن الخال جودت:

ـ فليأخذه الّله لأرتاح منه..!

ثم مشت هي والخالة حكمت إلى غرفة الكرار؛ بقت أم شوكت ممسكة بيد شهرت تنظر لها وهي شاحبة الوجه كالميتة. الخالة عفت الصغيرة تتلفت في ذعر. إنفجرت فجأة في البكاء ثمّ مالت على الوسادة وأغرقت في النوم. مبروكة تنظر مستغربة وشوكت مكتئب وصامت وضجة الضيوف لا تزال عالية.

إرتفعت ضجة الضيوف فجأة كأنما انفتح باب غرفة الجلوس. تصورهم شوكت يخرجون وأنهم الآن في الصالة خلف باب الغرفة مباشرة. تسلل هو ومبروكة في غفلة من الأم المنكبة على شهرت إلى الصالة. كانت غرفة الجلوس مفتوحة وفي الصالة أمام الباب الحاج سرحان يغسل يديه في الطشت والخال جودت يصبّ عليه الماء من الابريق. الجد واقف يتكلم مع الحاج سرحان ويضحكان. تناول هذا المنشفة من على كتف جودت وبدأ يجفف يديه. كلم الجد ابنه جودت ووجهه متورد من الضحك:

ـ نادِ للوالدة تسلم على الحاج..!

جاءت الجدة ووراءها الخالة حكمت ناكسة الرأس خجلا. سلم الحاج على الجدة وقبل يدها والجدة قبلت رأسه. سلمت عليه الخالة حكمت وقبلت يده.

أمسك هو ذقنها وقبلها من خدها. ضحك الجد والجدة والخال. الحاج أخرج من حافظته ورقة نقود كبيرة وناولها لحكمت. ضحكت مبروكة كالمجنونة وفرّت عائدة إلى الغرفة. تبعها شوكت يتصور شفتي الرجل لزجتين على خد الخالة ويتحسس خده هو في المكان الذي قبله فيه الرجل. حينما فتح عينيه في صباح اليوم التالي كانت أمه ما تزال جالسة بجوار شهرت ممسكة بيدها ومنكبة عليها وصامتة تماما.

دخلت الجدة والخالة حكمت ومعهما سيدة ريفية تلبس أسوداً وفي يدها صرة، جلست على حافة السرير بجوار شهرت. أم شوكت مدّت يدها وخلعت منديل رأس شهرت وناولته للمرأة في الملابس السوداء. بدأت هذه ترتّل بصوت عـال ، وتقيس بالشبر والفتر والقيراط وتعقد في منديل رأس شهرت عقداً. ثم أخرجت من صرتها حقا فيه أوراق حمراء كأوراق الورد وضعت منها في فنجان به قليل من الماء فتلوّن الماء بلون أحمر. أخرجت قلما من الناب وورقات. رسمت مربعات وكلمات في الأركان وحروف كثيرة حتى امتلأت الصفحة تماماً. نقعت هذه الورقة في طبق به ماء وأمرت أن تشرب شهرت هذا الماء فشربته شهرت متغصصة. أجرت المرأة نفس الشيء على ورقة أخرى وأمرت أن يُرَشّ نقيعها مكان ما سقطت شهرت. ثم قامت وهي تقول:

ــ الشفاء من الّله..!

حزن شوكت، كان يظن المرأة ستقول إن شهرت ستشفى حالا. سلمت المرأة ومشت وبقت الجدة جالسة على حافة فراش شهرت تبكي ويخضها البكاء. الخالة حكمت واقفة في شفتيها بقايا أحمر وفي عينيها بقايا كحل. قالت لها الجدة بحسم:

ــ خذي العيال إلى الكرار ليفطروا..!

وبعد أن أفطر العيال شالت الخالة حكمت على رأسها صفاً هائلاً من حلل الطبيخ ونزلت بها ووراءها العيال إلى غرفة الفرن لتغسلها. مكان سقوط شهرت على السلم مرشوش بالماء المقروء عليه. الشراعة مغلقة وصامته. انتاب شوكت خوف غامض.تلفت حواليه وجرى مسرعاً ليلحق بالخالة ومبروكة وعفت.

كانت ّلة عيال في الفناء الآخر عبر السور الواطىء قد بدأت في اللعب فعلاً . انطلقت مبروكة وخلفها شوكت وعفت يهللون في فرح وينظمون العيال. فوراً أخذت مبروكة دور الرياسه. لعبوا أشياء كثيرة واللعب حمي جداً. بنوا دوراً

وعملوا عرائس وعرسانا. سافروا إلى المدينة واشتروا أشياء من الدكاكين. خاطوا ثيابا وطبخوا ولائما. أطاع الكل مبروكة طاعة كاملة. لهثوا وراء اقتراحاتها وبدعها. رددوا وراءها الأغاني التي جاءت بها من البلد. لكنها فجأة توقفت وقالت وهي تغز سبابتها في صدر شوكت:

ـ أنت العريس..!!؟

ضحكت عفت جداً وتورّدت وجنتاها. أجلستها مبروكة جنب الجرار هي وشوكت.رسمت حولها دائرة كبيرة بخط من التراب وسمّتها البيت. كنست البيت ونظفته وأجلست العيال فيه يغنون بقيادتها. رسمت دائرة أخرى أصغر حول عفت وشوكت وسمّتها غرفة الدخلة. قالت مبروكة إن العريس والعروسة لا يتكلمان معاً أبداً. استمر الغناء.

ظل شوكت جامداً في مكانه ناظراً للأمام لا يجرؤ أن يرمق عفت. كان مهتاج المشاعر إلى أقصى حد لا يعرف إنْ كان فرحاً أم خائفا. كانت كلمة العريس بالنسبة له غامضة. تذكر العرسان الذين رآهم في البلد مخضبي الأيدي بالحناء. وفي وجوههم شحوب بعد حبس سبعة أيام في غرفة الفرح. مبتسمي العيون وفي وجوههم دمائة تليق بالعرسان ثم الجلاليب الجديدة والأحذية الفاقعة اللون. شيء غامض ورائع ومخيف هذا العريس وهو لا يدري.

فجأة هتفت مبروكة لشوكت:

ـ الآن تأخذ فلاح العروسة..!

صُعِق شوكت أمّا عفت فقد ضحكت دون فهم. جاءت تساؤلات العيال على مبروكة من كل جانب:

ـ كيف.. كيف.. كيف..!؟

لم يسمع شوكت شيئاً من هذا. كان الصمت في داخله وحوله. تذكّر ليلة فرح أخيه الأكبر. بعد الفرح وزفّة العروسة إلى العريس نام إلى جوار أبيه على الفرن في القاعة الداخلية. نامت أمه وحكمت في الناحية الأخرى من الفرن. لكنه في الليل قام مفزوعاً على صراخ العروسة زهرة. وجد أباه صاحياً ينظر. سأله مرتجفا:

ـ زهرة تصرخ يا أبي...؟

ردّ الأب رصينا مبتسما:

ـ أعرف..!

صمت شوكت غير فاهم شيئاً. قلّب بصره حوله. أمه جالسة شاردة مكتئبة كعادتها. كانت الليلة دخلة زهرة. لم يفهم شوكت لماذا تصرخ مفزوعة في ليلة دخلتها. ولم آذاها الأخ الأكبر في مثل هذه الليلة. لم يجد اجابة ولم يبرح السؤال رأسه. حمله معه في الأيام التالية. سمع بعد ذلك أن أخاه الأكبر في تلك الليلة أخذ فلاح زهرة، لكن لم يفهم تماماً ماذا يعني ذلك.

لكنه أدرك كل شيء حينما سمع زهرة تحكي ذلك لنساء أخريات لم يأبهن لوجوده وحكين عماً لاقت كل واحدة في تلك الليلة. بعضهن كنّ ضاحكات سافرات لكن زهرة كانت مريرة حاقدة . قالت عن أخيه:

ـ إن أصبعه كالفأس...

وتفكّر شوكت كل مرة رأى فيها الأصبع السبابة لأخيه الأكبر. كان هذا الأصبع غليظا محرشفا كفرع سنط. تصوّر ألم زهرة إذا يدفع أخوه هذا الأصبع في فرجها فيتفجّر الدم وهي تصرخ متوجعة مرعوبة.

أمسكت مبروكة ركبتي عفت وفرّقت بين وركيها قائلة:

ـ اجلسي القرفصاء هكذا..

شحب وجه عفت المتورّد . قاومت يد مبروكة قليلا ثم خضعت مفرّقة وركيها.

رآهما شوكت ناصعي البياض وسروالها بينهما قان. قالت له مبروكة:

أنت خذ الفلاح باصبعك..!

زاغت نظرات عفت وهي تستند بكفيها على الأرض خائفة. مدّ شوكت اصبعه السبابة يتحسس فرج عفت تحت سروالها القاني. لهاث مبروكة وتنفس العيال مسموع متهدّج. مشى بطن سبابته في أخدود بين نتوئين شديدي الهشاشة. صرخت مبروكة فرحة. تصور شوكت أن الدم تفجر وأن عفت زعقت، لكنه لم يرتعب كما ارتعب من صراخ زهرة. قام ببطء واقفاً. لم ينظر إلى أحد من العيال تصور نفسه أعلى قامة منهم جميعاً.

مبروكة أمسكته بكفيها من ساعديه ونظرت بعينيها البنيتين الواسعتين في عينيه صارخة:

ـ أنت أخذت فلاح العروسه..!

رأى شوكت في عيني مبروكة للمرة الأولى اعترافا ووداً حقيقيا، لكن ذلك لم يفرحه. كان حزيناً وصامتا تماماً في داخله. فقدت الأشياء سحرها بالنسبة له. صنع العيال موكباً لزفّة العريس والعروسة. رددوا خلف مبروكة أغانيها. مشى الموكب قليلا. شوكت وعفت صامتان.

وحينما نادت عليهم الخالة حكمت من الشرفة عرفوا أن المساء قد حلّ الخالة حكمت أطعمت العيال في غرفة الكرار ثم قادتهم إلى الغرفة. كانت أم شوكت جالسة بجوار الخالة شهرت على السرير وعلى كتفها جودت الرضيع. حكمت الصغيرة وشهرت المفطومة يلعبان على الأرض. الخالة شهرت في يدها كوبة شاي، أنفها أزرق وفي فتحتي منخاريها آثار دم. تحلّق العيال حول السرير ينظرون للخالة شهرت. نظرت لهم جميعاً ثم قالت لشوكت:

ـ هل أنا عملت شيئاً يا شوكت..؟

ثمّ انفجرت في البكاء وأم شوكت صامته. زحم قلب شوكت حلقه حتى كاد أن يختنق. انفجر في بكاء حارق. قال مولولا:

ـ لا يا خالتي..!

أجهشت عفت أيضاً بالبكاء ومبروكة نظرت مندهشة. نزلت أم شوكت ببطء من على السرير وجودت الرضيع على كتفها. سوّت الفراش ووضعت فيه العيال وغطتهم. غرقوا سريعاً في النوم إلاّ شوكت بقي صاحياً ينظر حواليه..

بعد قليل جاءت الخالة حكمت وقالت لأم شوكت:

ـ ألا تجلسين مع أبيك قليلا.. إنه هنا هذا المساء..!

قالت أم شوكت:

ـ نعم..

ثم تحدّرت نازلة من على السرير ببطء. وقفت تنظر إلى شهرت قليلا

وشهرت نظرت إليها أيضا. تنهدت أم شوكت ومشت دون أن تقول كلمة. تسلل شوكت وراءها يتبعها.

كان الجد في غرفة الجلوس يجلس على الكنبة التي في الصدر وإلى جواره الجدة وبينهما وسادة يتكيء عليها الجد. اللمبة الكبيرة في السقف ملأت الغرفة ضوءاً باهرا ونشرت جواً احتفاليا، لكن الجميع صامتون. تقدّمت أم شوكت قبلت يد الجد وكذلك فعل شوكت والجد دعا لهما وأشار إليهما ليجلسا. جلست أم شوكت وفي حجرها جودت الرضيع وإلى جوارها شوكت وعلى الكنبة المقابلة جلست الخالة حكمت.

سلّم الخال جودت داخلا. أعطى الجد نقوداً. عدّها هذا ووضعها في جيب جلبابه دون تعليق. ثرثر الخال قائلاً:

ــ أعطيت عبد التواب أفندي الحوالة موقعاً عليها من حضرتك وهو أعطاني النقود..؟

لوّح الجد بيده في وجه الخال جودت قرفاً دون أن ينبس ببت شفه. وقف هذا محتاراً قليلا ثم قال:

ــ سأمر على أحد أصحابي يا أبي..؟

والجد أعطى الخال يده ليقبلها دون أن ينظر إليه. قبّل الخال اليد الممدودة وألقى السلام وخرج. حلّ صمت ثقيل وشرد شوكت متفكراً في أشياء عجيبة أرعبته فجأة زعقة جده:

ــ الله حيّ..!

نظر الجميع للجد متوجسين والجدة تمتمت:

ــ يا ستار يا رب

تململ الجد في مجلسه متوثباً كأنه يوشك أن ينقضّ:

ــ هذا الكلب يسرقنا!

كأنما يكلم شخصا واقفاً أمامه:

ــ يسرق الوقف ويلقي إلينا بالفتات هذا الناظر الحقير..!

ظل الصمت كثيباً وقالت الجدة متململة:

ــ فليحرق الله كبده..!

كنس الجد كلامها جانبا وهو يجعّد أنفه قرفاً منها. تصور شوكت ناظر الوقف هذا رجلا بشعا يلقي لجده وجدته فتاتا وهما يلقطانه من الأرض كالكلاب. حلّ صمت بلا نهاية. جودت الذي صحا على زعيق الجد بدأ يبكي وأم شوكت تهدهده بلا جدوى. كلمت الجدة الجد متوسّلة:

ــ يا فندي.. ألا ترتّل في أذن جودت الصغير الاذان الشرعي.. ولد عند أهل أبيه ولم يُعنىَ أحد بهذا..

والجد تحولت ملامحه إلى تذلل عجيب وتهدّج صوته وهو يكلم أم شوكت:

ــ هانه يا بنتي..!

قامت أم شوكت تحمل جودت الباكي. حينما جلست إلى جوار الجد وربّت هذا على رأس الصغير أخلد إلى سكون. أذّن الجد تماماً مثل الاذان على ظهر مسجد القرية لكنه خفيض الصوت. بقي الجميع صامتين حتى فرغ الجد.قال لأم شوكت:

ــ حفظه الّله لك يا بنتي.. حفظة الّله لك..!

عادت أم شوكت إلى مكانها، وعاد الجد شارداً، وعاد الصمت ثقيلاً مستطيلاً بلا نهاية.

بدأ الجد حديثاً لين العبارات وهو شارد مستغرق.

ــ هذا الكون طبقات بعضها فوق بعض.. أخفها أعلاها وهو الهواء.. فيه يعيش الانسان والحيوان والطير.. وبعد ذلك الماء وفيه يعيش السمك وغيره من حيوان البحر علمه عند الّله. وبعد ذلك الطين وفيه الديدان وغيرها.. وفي قلب الصخر تعيش مخلوقات يأتيها رزقها من عند ربها بمقدار..!!

وهنا تهدّج صوت الجد حتى كاد يصير بكاءً خالصاً والكل صامتون. لم يفهم شوكت شيئاً لكنه مبهور. تخيل أطياقاً غريبة تهيم متراقصة على الجدران. زعق الجد زعقة مهولة.

ــ حَيّ..!

نشب شوكت أصابعه من هول الصدمة في لحم ورك أمه. اختلطت في عينيه المرئيات ومادت الغرفة. أرقدته أمه على حجرها أغمض عينيه وراح في سبات عميق.

كان الصباح عجيبا، أيقظت الأم شوكت ملهوجة:

ـ قم . . سنسافر اليوم . . !!

وردّ شوكت على الفور وهو بعد لم يستيقظ تماماً:

ـ طيب . . !

فتحت أم شوكت باب الغرفة إلى الصالة، متجنبة الباب إلى غرفة الجد والجدة. خرجت لابسة جلباب السفر الأسود، سلتها في يدها وجودت الرضيع على كتفها تدفع أمامها مبروكة التي تحمل شهرت المفطومة وشوكت الذي يمسك بيد أخته حكمت الصغيرة. في فتحة الباب وقفت ساهمة تنظر إلى الخالة شهرت التي جلست في سريرها تنظر في أعقابهم وإلى جوارها عفت الصغيرة . نكّست الخالة شهرت رأسها واحتضنت عفت الصغيرة. تصوّر شوكت أنها ربما تداري دموعها. كانت أم شوكت قد رجتها ألاّ تبكي بعد أن بكت هذا الصباح حتى تقرّصت جفونها. خرج شوكت وفي يده حكمت تكاد تخنقه كربته.

كان الجد يوشك أن يخرج ذاهباً إلى شونته مرتدياً حلّته وطربوشه والجدة خلفه تودعه على الباب. أقبلت أم شوكت عليه وقبلت يده وقبلت يد الجدة كذلك. تكلم الأب وهو في غاية التأثر لما رأى أم شوكت متأهبة للسفر:

ـ هل آن الأوان يا بنتي . . ؟

وردّت أم شوكت كالهامسة:

ـ ما باليد حيلة يا أبي . . !

قال كأنه يولول:

ـ لا حول ولا قوة إلاّ باللّه . . !

وحلّ صمت قليل عاد بعده يقول:

ـ اقعدي يا بنتي حتى أعود . . !

توسّلت أم شوكت:

ـ ربما في السفر الباكر خير يا أبي . . !

قال الجد وهو يمضي خارجاً

ـ سوف تنتظرين حتى أعود.. ولن أغيب عليك..!

صمتت أم شوكت مغلوبة على أمرها. خرج الجد وانخرطت الجدة في بكاء يخضّ جسمها خضا. مشت الجدة تمسح دموعها بمنديلها وأم شوكت واقفة والخالة حكمت أخذت جودت عنها. أتت الجدة لأم شوكت بأشياء كثيرة، ملابس ومناديل رأس ومناشف. شكرت أم شوكت الجدة ودعت لها. دللت الخالة حكمت جودت الصغير وقبلته في شفتيه. أتت عفت الصغيرة بأشياء وقصاقيص قماش ملوّنة لمبروكة، نظرت هذه دون مبالاة وضمّت قبضتها على الأشياء. سمعوا الخالة شهرت تأتي من الغرفة ثقيلة الخطو. تعلّقت بها نظرات أم شوكت ، وهي وضعت يديها على رأس حكمت الصغيرة وشوكت وعفت الصغيرة ضمتها بذراعيها. نزل الجميع السلم ذاهبين إلى غرفة الفرن.

في الطريق إلى غرفة الفرن قالت عفت الصغيرة لشوكت

ـ أنا حزينة أنكم مسافرون..!

تعجب شوكت من الكلمة الحلوة ولم يستطع أن يبادلها مثلها. سكت مكتئباً مقهورا. في غرفة الفرن جلسوا جميعاً على الحصير. السلّة في الركن أصبحت ممتلئة وثقيلة.

بدأت الجدة تبكي يخضّ جسمها البكاء. قالت أم شوكت:

ـ لا تبكي يا بنتي.. إنها انشاء الله بخير..!

وخمّن شوكت أن الجدة لا بدّ تبكي الخالة امتثال. واصلت الجدة ولولتها:

ـ تعاودني يا بنتي ذكرى ذلك الصبح عندما وجدت فراشها بارداً..!

وعلا نشيج الجدة ونكّس الجميع أبصارهم إلى الحصير صامتين. وهي ولولت:

ـ خرجت من دار أبيها فارغة اليد ليس عليها سوى جلبابها الأسود..!

أصبحت الجلسة مأتماً. ارتعب شوكت وزاغت عينا حكمت الصغيرة حتى لبدت في حضن أمها وجودت الصغير بدأ يصرخ. واصلت الجدة بكاءً وعويلاً شرساً:

ـ صرخ أبوكي أنها مرّغت شرفه في التراب.. والرجل يا بنتي كتب كتابها ليلة وصولها له لم ينم معها ليلة في الحرام..!

كاد شوكت أن يصرخ، أن يخرج جارياً لولا أن وصل الجد. جاء الجد

أحمر الوجه مترب الحذاء يمسك طربوشه في يده وخلفه عمران العجوز يحمل قفّة كبيرة. ساعدته الجدة حتى أنزل القفة بعناء. قال الجد لأم شوكت:

ــ هذا اسبوعك يا بنتي.. لحم وأرز وصابون..!

قالت أم شوكت خجلة

ــ أتعبت نفسك يا أبي..!

تهدّج صوت الجد وتحدّرت دموعه. أسرعت أم شوكت قبّلت يده شاكرة. امتلأت عيون الجميع بالدموع. والجدة جسمها يخضه النشيج. أخرج الجد ساعته وكلم أم شوكت:

ــ امضي الآن في حفظ الّله يا بنتي..!!

قبلت يده مرة أخرى. قبلت يد الجدة. قبلت الخالة حكمت وهذه قبلت يدها. احتضنت شهرت وهذه بكت وقبلت يدها. حضن الجميع شوكت والعيال وحتى مبروكة ثم مشى الموكب الصغير. الأم تحمل جودت على كتفها وفي يدها السلة الثقيلة. عم عمران يحمل القفة. مبروكة تحمل شهرت المفطومة . شوكت يمسك بيد حكمت الصغيرة مشوا يتلفتون ويلوّحون . الجد والجدة والخالات على باب السور عيونهم مليئة بالدموع .رأى شوكت عيني أمه معلقتين بعيني الخالة شهرت. رمق هو أيضا عفت للمرة الأخيرة وأخذ يد حكمت الصغيرة ومشى.

عم عمران يئن تحت القفة الثقيلة. من خلال أنفاسه اللاهثة سأل شوكت:

ــ هل تعود لنا مرة أخرى يا شوكت..؟

انتاب شوكت الحزن والارتباك قال:

ــ لا أدري.. لا أدري..!

سأله العجوز مرة أخرى:

ــ هل أحببت بلدنا يا شوكت..؟

تأمل شوكت أقدام الرجل الغليظة تتنقل على الأرض باصمة بثقلها على التراب. ثم قال:

ــ آه.. إنها بلد طيبة..!

*

مضى الشارع صعداً. عرف شوكت ذلك في كفاح قدمي عم عمران الثقيلتين كخفي جمل. قال في نفسه، الآن سوف ينتهي الشارع إلى المقبرة. تواً بدأ حجم التل الهائل يحجب الأفق عند آخر الشارع. مقبرة عجيبة ليست أبداً كمقبرة بلدتهم. تذكر هذه وامتلأ قلبه خوفا. وهج الشمس المسلط والظلال القليلة والصمت المخيم وطنين الذبابات الخضراء اللامعة ظهورها في ضوء الشمس. مقبرة بلدتهم بعيدة جداً عن الدور. القبور حجومها جسيمة مدهوكة بالطين. الصبارات نابتات في طين شرق متشقق في أصص متربة مكسورة، لكنها تبدو في القيظ دسمات مكتظات. شواهد القبور الطينية صفوف صفوف مكتوب عليها أن تبقى هكذا لا تريم تحت وقدة الشمس المنصوبة.

تذكر يوم أن خطر له أن يرى المقبرة. زوجة أبيه تذهب كل آنٍ وتعود تحكي حكايات عجيبة تملأه استغرابا. عزم على الذهاب ومشى في السكة الطويلة تحت الشمس الظهرية حتى شارف القبور. ثمّ تجاسر أن يقترب أكثر وأكثر وقلبه يرتجف في صدره رعباً حتى أصبح هناك. شواهد القبور حولت ناحيته تحت تلك الشمس السوداء عيونا وملامح طينية. ثمّ إن تلك الشواهد كلمته بشفاه الطين تلك. كل الشواهد تكلمت، وكان الكلام همساً متوجعاً أليما. كان الكلام جماعياً كأنه ترتيل قرّاء. ثم بدأ الكلام يعلو ويعلو حتى صار هزيماً مزلزلا.

تلبّسه ذات الرعب الذي تلبّسه حين زار المقابر وحده. تفصّدت مسام جسمه بالعرق وهو يمشي في موكبهم الصغير وفي يده أخته الصغيرة حكمت. فإنه

يومها استدار ناحية الدور وأطلق ساقيه للريح. طار عائداً إلى الدار. حينما رأته أمه فزعت وسألته ملهوفة.

ـ أين كنت...؟

وهو أجاب:

ـ كنت في المقبرة..!

ورأى شوكت وجه أمه يشحب كأنما توشك أن تقع ميتة. أخذته من يده وربّتْ له دقيقا في كوز ماء وسقته. شرب متغصصاً.قالت له أمه وفي صوتها بحّة البكاء:

لن تذهب مرة أخرى أبداً.. أبداً...!

لكن هذه المقبرة لا يخاف منها العيال. يلعبون عليها طول النهار. كذلك العنزات والنعجات. ولقد ذهب مرة وشارك العيال لعبهم. من هنا ارتقى التل صعداً. تعجب لما رأى أشجار السنط الكثيرة وطيور مالك الحزين الآمنة. الطيور ناصعة البياض صفراء المناقير على ظهورها خضاب حنائي قليل. تعجّب لها كيف تسير آمنة يندفع رأسها الدقيق مساوقاً تنقل خطوها. السيقان نحيلة سوداء والقراق متخالط لكنه ليس قبيحاً ولا مفزعاً. ولقد رأى أعشاشاً فيها بيض أو فراخاً عارية من الريش عمياء العيون تخبط بمناقيرها في كل صوب. والرجال في الظل عند أقدام الحيطان في الجهة الأخرى. طنين ذبابات أو اختلاط كلمات لكن لا خوف.

يومها ارتقى التل صعداً هو ومبروكة والعيال. كانوا يريدون شراء لحم لطبيخ الفرح وكان عرفة ابن الجزار قد علّق ورقة هائلة من أوراق التين الشوكي في فرع شجرة سنط يقطع منها بمنجل قديم في يده ويبيع للعيال الذين يريدون لحما للعبهم. ساومته مبروكة باقتدار وجاءت باللحم فرحة. شوكت كان يتأمل السكك السارحة في جسم التل. يتأمل القبور المتناثرة هنا وهناك بلا وقار. وشواهدها ساقطة وكثير منها بلا صبارات. العيال يلعبون عليها والنعجات والعنزات بلا خوف. سأل شوكت نفسه «هل يا ترى هذه البلدة بلا عفاريت؟ أم أن العفاريت هنا تسكن ناحية أخرى..؟»

عجب جداً وعجب كذلك لطيور مالك الحزين الآمنة. هي الآن أيضاً كما كانت دائما. وهو آخذ بيد أخته الصغيرة حكمت مرهفاً السمع لخطوات عم

عمران الثقيلة على التراب الناعم. أحسَّ قلبه ثقيلا وأحسَّ بودٍ كبير إلى الرجال الذين يجلسون عند أقدام الحيطان. كفّ الرجال الكلمات المتفرقات الكسولة ورفعوا الى الموكب العابر سحناً لوّحتها الشمس. تحت الجباه البنية تبرق عيون صغيرة كالخرز. يتأمل شوكت أصابع الأقدام الضخمة. دون أن يدري وجد نفسه يحيي جماعة الرجال في وقار وحزن.

ــ السلام عليكم..!

حدث تردد قليل وجاءت الردود مبعثرة يسمعها شوكت ورعدة الخوف تمشي في جسده

ــ عليكم السلام..!

رمق ظهر أمه بسرعة. لمح ارتجافها وارتباك خطوتها لكنها لم تلتفت ولم يضطرب مسارها. صرف من الارتباك نظره ناحية شجرات السنط والتل الصاعد إلى أعلى مرشوقة في جسده القبور. عادت عيناه تتأملان طيور مالك الحزين تمسحان على خضاب ظهرها وتفتشان عن الأعشاش على التراب عند أصول الأشجار. يتابع بأذنيه همهمة الرجال برد السلام ومصمصة الشفاه تعجبا من طفل صغير يلقي السلام كالكبار. ما زالت في جسمه برودة خوف مما فعل، لكنه ظل في تأمله كاسياً وجهه قناع حزن.

لقطت أذنه كلمات ودودة ودعوات من الرجال الجالسين له:

ــ الله يفتح عليك يا بني..! ولد مبروك..!

وعم عمران تحت القفة الثقيلة يقول:

ــ هيه.. هيه.. سيفتح الله عليك يا شوكت.. وتكون مبروكا.. وتذهب للجامع وتقيم الصلاة في المواعيد..!

لم يدرك كلمات عم عمران جيداً. تصور الرجال في قريتهم يمشون من الدور حتى الجامع في ثياب نظيفة غير ثياب العمل في الغيط. على جباههم غبرة من أثر السجود وفي أيديهم المسابح يلقون السلام . لم يفهم شيئا. وهو لا يعرف كيف تؤدّي صلاة أو تُتلَى قراءة. امتلأ خوفا وعدم تصديق، لكنه لم يدع ذلك يبدو على وجهه. مشى ناظراً إلى الأمام لا يتلفت. يقول في نفسه: « إن الواحد قد يكون خائفا، لكنه لا ينبغي أن يكلم الناس عن خوفه ».

الشارع يدور حول التل الكبير وجماعات آخرين من الرجال يرفعون الوجوه ناحية الموكب العابر. التفتت مبروكة ناحية شوكت. ربما تتوقع أنه سيقرىء الناس السلام مرة أخرى. لكنه لم يفعل. وربما لحظ في عينيها ابتسامة شماته. لم يأبه لها. حرف عينيه عنها سريعاً. إنه يريد الآن أن يكون وحيداً. سحب حكمت يستحثها بجذب رفيق من يدها حتى لا يتخلّف عن عم عمران. والرجل يواصل كلماته التي كان قد قالها منذ مدة:

ــ أليس كذلك يا شوكت... يا بني!

وشوكت يقول في نفسه «نعم» خافتة لا تُسمَع ويهز رأسه موافقاً وهو حزين إلى درجة البكاء ويتصور نفسه في جماعة الناس الذاهبين للصلاة في المسجد.

تكشّف عند نهاية الشارع امتداد الحقول الشاسع والسكة التي تشقه ماضية إلى المحطة البعيدة. بدأت كآبة ثقيلة تزمم صدره وتخنقه وأراد أن يبكي بحرقة. التفت بسرعة إلى القرية التي تتصرم وراءه مبتعدة. الآن أصبحت الزيارة لبيت الجد فائتة ومنقضية. رأى أن الأشياء تغيم خلف غلالة الدموع التي تملأ مآقيه. دموع دافئة تتحدر من عينيه على وجهه وهو صامت. بكاء آخر لم يجرِّبه قبل ذلك. ترك الدموع تتحدر فلا أحد يراه.

وجد صعوبة في تذكر الأشياء في بيت الجد. الحكايات متداخلة والوجوه والكلمات وهو يقف وسط هذا الاختلاط غير عارف ما يصنع. لا يعرف مَنْ يحب ومَنْ يكره. هم جميعاً كشخوص الحلم وهو كالنائم الذي تيبّست أعضاؤه من الكابوس. واصلت دموعه الانحدار وأحس نفسه يقول «إنني أحبهم جميعاً، هم ناس طيبون وأنا أحبهم جميعا».وتصوّر كأنهم يسمعون هذه الكلمات وكأنهم يرفعون إليه الوجوه. والحلم يملأه حزنا غريبا لم يجرِّبه قبل هذا.

لكن الرغبة لم تساوره في الرجوع. في الحقيقة لم تساوره رغبة من أي نوع. إنه فقط يريد أن يبقى وحيدا. وهو يسير الآن عائداً لأنهم ينبغي عليهم أن يعودوا إلى القرية.

تأمل جلبابه. اكتشف أن الجلباب لم يعد جميلاً كما كان أول ما لبسه. بعد أن غُسل فقد جدته وبهاءه وصار قصيرا. مسح دموعه بكمه. رأى أن مبروكة تنظر

إليه. ضايقه هذا. صرف نظره إلى الناس الذين يعملون في الحقول. إلى سارحين متأخرين أو إلى ناس يبكرون بالعودة. وهذا جعله يحسّ بالانقباض . تلك الكمية من الصمت المعلّقة على امتداد المسافة في هذه الصنة الضحوية .

قال في نفسه إنه إذا عاد إلى البلد فسوف يكون دائما وحيداً. لن يتكلم مع أحد. سيذهب إلى كل مكان وحيداً وسوف يلعب وحده أيضاً. وإذا نصب العم والأخ الأكبر آلة العذاب تلك تحت النخلات فسوف يذهب . وسوف ينازل العيال. وسوف يحاول جهده ألاّ يقع. سوف يثبت قدمه في الأرض بكل قوة وبذلك لا يقع. وهذا التصور ملأه فخرا. واصل سيره مباهياً يحلم أنه لا يقع في نزاله مع العيال وأن العم والأخ الأكبر ينظران إليه ذاهلين. الأخ الأكبر ينظران إليه ذاهلين.

لكن حكمت الصغير بدأت تبكي ولم تعد تستطيع السير. جاءت لها الأم تنظر للمسافة الباقية وتكلم شوكت:

ـ هل تستطيع أن تحمل أخاك جودت قليلاً..؟

حمل شوكت أخاه جودت يسنده إليه بكفه. وأم شوكت تكلم الحمّال العجوز.

ـ هدّت حيلك هذه القفة يا عم عمران..؟

والرجل يعتل حمله مثقلاً قدميه.

ـ حمّال الحمول هو الله يا بنتي... ولقد وصلنا والحمد لله.. لم يبق سوى فركة كعب..!

حملت الأم حكمت الصغيرة ومشت. مبروكة الآن تسبق متقدمة والأم تمشي بجوار العجوز وشوكت يمشي متخلفاً حاملا أخاه.

وصلوا إلى المحطة. عبروا جميعا جسراً صغيراً على ترعة قليلة الماء وانحرفوا يميناً إلى مصلى محاط بسور واطىء ومفروش بالقش في ظل صفصافة تتدلى فروعها في الماء كامرأة تغسل شعرها. وعلى البعد رشقت لوحة أسمنتية كبيرة تحمل اسم البلد.

أعانت أم شوكت عم عمران ليضع حمله. تنّهد الرجل تنهيدة عميقة وهو ينظر إلى القفة الجاثمة على الأرض. رفض أن يعود حتى يعين أم شوكت على

ركوب القطار. أخرجت صرّة منديلها فكّتها عن قروشها وأعطت الرجل شيئاً منها. قبل النقود ووضعها في جيبه وشكر أم شوكت ودعى لها:

ــ ولتعودي إلينا كثيرا يا بنتي بسلامة الله..!

نظر شوكت لهذا ساهماً في نوع من عدم التصديق. وحينما صاحت الأم في ضجة القطار تقول لعم عمران «سلّم لي على والدي» لم يسمع الرجل ومشى عائداً على نفس السكة.

الركاب قليلون. لا متسولون ولا باعة. فقط صبي صغير ماسح أحذية يمشي بين صفي المقاعد متكاسلاً ويخبط بالفرشاة على الصندوق خبطات متباعدة. جلست أم شوكت تضم جودت إلى صدرها وتحضن حكمت إليها. شهرت نائمة على حجر مبروكة والقطار يصلصل حديده وهو ينفخ زفرات متقطعة مبتدئاً مشواره. نظر شوكت من الشباك. عم عمران على السكة آيباً صغيرا على البعد. قاسَ شوكت المسافة إلى القرية. بعد طويلة.

مرة أخرى انفطر قلب شوكت. نظر إلى أمه، جامدة الوجه مزمومة الفم غائبة في تفكير عميق. حوّل وجهه إلى الشباك وقد نسي مبروكة تماماً. لكنه استحوذ عليه تصوره أنه إذا اكتسى وجهه بالجهامة هكذا وهو ينظر من الشباك فإنه في هذه اللحظة يشبه أمه تماماً. ملأه هذا الاحساس كبرياءً وأنفة وشعوراً بالمسؤولية.

غمره الحزن، حزن لا يريد أن يتخلّ عنه عمره. يتوحّد قلبه وجسده مع هزيم القطار المندفع. يتصوره طائرا. يطير القطار صعداً وتبقى الأشياء متخلفة عنه. القرى والجميزات العجوزات والناس والبهائم. في القرية البعيدة بيت الجد، نقطة صغيرة موجعة وسط زحام من أشياء أخرى. على هذا الأفق، على نثار من نتف سحب تحتها خط من رسوم أشجار ومنازل، كانت هناك عينا مبروكة. بنيتان كبيرتان سود الأهداب. تطلّع فيهما دون خوف. يخالط جمالهما انكسار كان عليه أن يراه من الأول.

٢ـ سطور من دفتر الأحوال

● باسم الشمس

مصر بضعة انفتقت من رتقها وبقت تتبعها مهيضة مغلوبة ساخنة عرقانة زاهقة الأنفاس. والشمس أم مأحونة تمدّ إلى قلب الأرض أذرعا ناحلة وأصابع معروقة مرتجفة بحرد الحب. الفصيل يضنى باللبان المسمومة ما ينهض حتى ينهار، تظل العينان البهيميتان معلقتين بالأعلى، غاشيتين لا تبصران. والحر شديد حتى تساوي الحياة الموتَ في عدم القدرة على التجدد. والضوء باهر حتى تساوي الظلمةُ النور وحتى يستوي الأبيض والأسود في مزاج من الذهول والخدر ينبض في عمقه البعيد ايقاع جنائزي، كهنة حليقو الرؤوس في ثياب من الكتان الأبيض يؤدّون رقصة الموت. موت كالغمض. موت عذب ينعم به القلب، يحضنه وينغلق عليه.

شجرات السنط والجميزات منشورات الفروع كالبارق فوق رؤوس زرافات الحاجين إلى المزارات والسائرين في الجنازات. تهمي الأوراق الشاحبة والنوارات الصفراء على التراب. الطرق على جوانب الترع ما تمضي حتى تنقطع وما تستقيم حتى تميل. إنبهمت الغايات واختلطت المقاصد فتشابكت المسالك. ينكسر الشوق آيباً إلى نقطة البدء ويستحكم استبداد قدر الدوائر المقفلة.

وفي الناحية الشرقية قبالة الأفق تقف سراي الباشا محروسة بالخوف كأنما أسوارها الساقطة البياض أوراق صفراء في مصحف قديم. فإن الواحد ينسى الحكاية، تنفرط سطور كلماتها من قلبه ويبقى الرعب متكوراً في ذلك القلب حتى

ما تستقيم القامة ولا ينضر العود. الناس مكسورون شاحبون. الناس سمر وناحلون، وهم قلقون فزعون كالطيور وهم صامتون ومنطوون. قلوبهم ما عادت تتسع لكل هذه الحكايات، ينسونها ويبقى الخوف كالأحجبة الحافظة التي يكتبها في الغرف المعتمة الشيوخ العميان، لتُعلّق جنب القلوب.

كان الباشا رهيبا. كان عنده عبيد سود حمر الأفواه بيض الأسنان. كان العبيد يصرخون صراخاً مرعبا ويطيرون على ظهور الخيل في أنحاء الزحام يسوطون ظهور الفلاحين. كانوا يسلبون وينهبون. كانوا يسوقون الأنعام غصباً إلى سراي الباشا ويسحلون الرجال. كانوا يضعون القطط في السراويل ثمّ يعملون السوط فتنهش هذه في اللحم الحي وتبدأ ملحمة العويل الفاجع في وسط حلقة من ضحكات الباشا وعبيده حمر الأفواه بيض الأسنان.

هدأ هزيم الذكريات في القلوب مخلّفا العاهات الأبيدة. والسور الشاهق ما زال قائما. سقط بياضه لكنه ما زال قائمًا ممتلئا غموضا وأنفة. يحيط بمساحة هائلة من الأرض. يحيط بسر عويص لا تبدو منه إلّا جريدات النخلات الشواهق المحملات بالبلح الأحمر والأصفر. وإلّا فرع أشجار المانجو المحملات بالثمار الفوّاحة بعبير آسر.

لا تسأل أين الباشا فالأرض له. سره باتع عظيم وإليه تجُبى المحاصيل ومن أجله تُدَّخر القروش. وزرافات الفلاحين يمشون حتى قرب السراي. هناك مبنى صغير فيه مكاتب وحاسبون يستأدون الواحد كل ما عنده حتى ما يبقى له ما يسد رمقه. يعود الرجل من التجربة المخيفة لا يحكي ولا ينقل خبراً. لا تسأل أين الباشا فلا يؤمن أن يقوم. ينطلق عبيده سود حمر الأفواه بيض الأسنان يزعقون وينشرون الرعب. أيامها لم يكن كل الزمام معموراً على الحواف. كانت وحوش الخنازير البرية والذئاب والثعالب والضباع. كانت الحياة زعيقاً مرعبا في الليل والنهار. لكن الباشا لن يقوم. وإنْ قام فسيكون صالحا. فقد كان في الزمن القديم رجل عاص تطلبه الحكومة وهو يفر منها ويراوغها. تنكّر العاصي في ثياب الأئمة ودخل على الباشا وعظه. والباشا عرف. عرف العصيان وعرف الموعظة. الباشا بنى في عاصمة الاقليم المساجد والمدارس والأسبلة والبيمارستانات. الباشا قبب القباب ونقش النقوش وملأ القلوب بالمخافة. الخوف صلاة وأدعيه وطوابير الحجاج إلى عاصمة الاقليم في أيام الفصول. الباشا صلاة وتراتيل. الباشا صالح. الباشا طالح. الباشا خوف قائم مرصود يمنع أن يرقص

القلب طرباً أو أن يستقيم العود قائمًا.

لكن السور يحيط بمساحة هائلة من الأرض، بسرٍ عويص هامد. في الناحية الغربية قبالة الأفق أُقيم مَبنى نقطة البوليس. طراز البناء انجليزي. سلم يصعد إلى باب من الخشب والزجاج والحديد على جانبيه عمودان شاهقان. وعلى الشبابيك أدنيت طنف تحمي داخل الغرف من وهج الشمس. ثم إن المبنى عمر بالعساكر. وسبكت كعوب أحذية العسكر بالحديد تصفق وجه درجات السلم في الصعود والهبوط. تتجاوب الآفاق بأصداء هذه الصفقات. تتراجع أكواخ الفلاحين إلى الخلف رويداً رويداً حتى تتم حول مبنى نقطة البوليس دائرة فسيحة. وهذه الباحة ظللت بأشجار ذقن الباشا فأصبحت وكأنها الفردوس ظلاً وطراوة.

من حظائرها خلف المبنى تصهل خيل الحكومة. سلالة انجليزية في نواصيها الشر إلى يوم القيامة. على ظهورها عساكر صفر الثياب صفر الوجوه صفر الطرابيش يعملون في الناس السياط. يسلسلونهم في الجنازير ويعودون بهم طوابير يودعونهم سجن النقطة. والأهل يأتون. لفّوا في المناديل أرغفة الخبز وحبات الملح. يجلسون تحت أشجار ذقن الباشا. تماماً مثل جلستهم جنب الجامع في عاصمة الاقليم يرقبون مغفرة الله لذنوبهم. يرقبون الآن عفو ضابط النقطة عما اقترفه ذووهم.

وفي مبنى النقطة. في الغرفة الداخلية يقف صيوان هائل مليء بالثقوب تلك الثقوب مرشوقة فيها الخوابير. أمام الصيوان يجلس عسكري على كرسي وعلى أذنيه مسماعين. العسكري ينقل الخوابير بين الثقوب ويدير في الجنب كرنكاً معدنيا ويلقي بالزعيق والشتائم والبيانات. من تلك الغرفة تخرج أسلاك الهاتف. محمولة على مئة ألف صارية. ماشية في أرجاء الدنيا. في الليل وفي النهار. تحت الشمس وتحت المطر. لا تكلُّ ولا تملُّ. كأنها عبيد الباشا حمر الأفواه بيض الأسنان في الزمن القديم. زعيقها معدني مدمدم صارم يتحاشاها الناس. يخلون الدوائر حول كل آلة هاتف عند دار شيخ القرية ويرقبون صامتين متوجسين.

باسم الشمس فليتوهّج القرص الأقدس، وليسخن قلب الأرض حتى يصير ناراً، وليظلم الأفق من شدة الضوء ومن كثافة الغبار. لتنتشر بيارق الخوف في أيدي العبيد السود الحمر الأفواه البيض الأسنان. في أيدي العساكر الصفر الثياب الصفر الوجوه الصفر الطرابيش. ولتنبسط هذه الأرض تحت السنابك المغيرة.

ولترتجف القلوب بذكرى الزعيق الوحشي، بدمدمة معدنية مكتوبة في أسلاك الهاتف، بأهازيج دينية في أضرحة الرجال المقدسين حول أهلّة القباب المنقوشة. ليتقدّس الخوف، إنه النظام. إنه أمان هذه الحياة المهيضة. أن تموت... أو أن تحيا.

● مصرع الفرحة السمراء الصغيرة

لكن المساحة ما بين سراي الباشا والنقطة فسيحة منبسطة. والأرض معطاء. التراب وسم كثيف تبرق فيه جسوم غريبة. إذا دفن الواحد فيه يده اشتاق أن يأخذ منه يدعك به صدره ووجهه ويهيل على جسمه. يخرج الناس من تكدس الأكواخ إلى انفساح الحقول. يقضون النهار يحفرون في الأرض منصرفين حتى يجمعهم المساء إلى قيعان الدور. عندئذٍ في الظلمة، بين قلوب أُفعِمت بهشاشة الثرى، تولد لحظات الشوق. رجال خشنون ونساء كالبقر. لكن اسكتْ. إنك لا تعرف. فمهما تكن خشونة المرأة فإنها تخفي في طيّات ثيابها شيئاً ناعما تبديه لزوجها في الليل. ومهما تكن سلاطة لسانها فإن في صرّة منديلها بضعة كلمات حلوات تسكبهن في أذن رجلها النائم على ذراعها كطفل.

ولقد مَنَّ الله على الدنيا بنعمة الحمير. آه لها هذه المخلوقات الحبيبة. الاناث نحيلات مهزولات مجروحات الظهور من ثقل الأحمال، ، تمشين تكدحن الطرقات في رحلة أبدية، تدفعن أمامهن هامات ثقيلات ساقطات. والذكور معروقون مجوّفو البطون لهم نهيق مروِّع وآلات عظيمة وشبق نحو إناثهن الكئيبات لا يرتوي. وإن الواحد ليرتاع إذا ما جاء الموسم وتلبسُّ أجساد الحمارات المنهوكات شبق عارم. إذْ ذاك تتجاوب الآفاق بنهيق الذكور ويشيع في الكَفْر روح داعر لا يُرَدّ. المجد للخصوبة، عيال وجحوش. المجد للذريّة. إنها ترث الأرض.

ولقد كان الرجل ينظر إلى حمارته المهزولة العرجاء الدامية الظهر الساقطة الهامة وهو يمشي وراءها من الحقل إلى الدار ذهاباً وأوبة. هذا الرجل في طبعه لكاعة. وابتسامته تكشف عن ثنايا ساقطة وأنياب تالفة. وتقيته دائمًا متزحلقة عن رأس صلعاء. وهو بشكلٍ ما يعرف. يرمق الأشياء من حوله من تحت حاجبين كثيفين متأنياً في خبائة، لكنه لا يقول.

ولقد كان. وفي الموسم تلبَّس جسد الحمارة الهالك عفريت الشهوة. الرجل

يبتسم في غموض. يخُلِّ بين الأنثى وذكر أسمر من الحمير كالجن. ثمّ يقودها إلى الدار. يتأملها، ينصت إلى نبض كيانها ليرى أيّان رست المتعة الوجيزة واستقرّت وكيف تنمو جرثومتها وتخصب. وهو في هذه الليلة اشتاق أن يحس على خشونة فخذية الناحلين نعومة فخذي امرأته اللحيمة ثم أسلم لليل الحبيب قلباً حالما.

ثمّ كان جحشا أسمر رقيقا. جنت لبان الأم المسكينة بعد هنيهة. بدأ الجحش يهزل وتجدب فروته. يتسكّع في الجرن ثمّ يتجاسر ويخطف الأعواد من أطراف حقول الناس. وكان صاحب الحقل رفيقا يأخذه إلى حيث يتضرر منه عند أصحابه ويحذّرهم أن يتكرر منه هذا الفصل. يضحك صاحب الجحش ويعجب بجسارته، يخفيها في هزاله هذا الماكر كما تخفي أمه شهوتها العارمة في هزالها.

أمّا صاحب الحقل فقد وقف على رأس غيطه مقهوراً. العيدان الغضة تُقضَم بلا رحمة. يجفُّ مكان القضمة ويصفرّ ما بقي من العود. تتعرّى الأرض ويبدو من بين العيدان شبح الخراب. ومن ورائه يأتي الجحش متهادياً عارفا. يلملم بشفتيه الغليظتين المليئتين بالشعر ورق العيدان ثم يقضم بقواطع عريضة حادة. يجن جنون صاحب الأرض. يهوي بمنجله على رقبة الجحش يفصل رأسه عن جسمه. يرى صاحب الجحش مصرع فرحته الصغيرة السمراء. يُذهَل عما حوله. يحضن الرأس المقطوع إلى صدره. يخضّب الدم جلبابه ووجهه ويديه وذراعيه. يحس بغربته عن الناس وعن الأكواخ. يمشي بحمله الدامي إلى النقطة مثل رجل كربته الدنيا فولاها ظهره ويمم وجهه شطر بيت الله.

وبقت جثة الجحش ملقاة في الجرن. وهو جرن حافل بجثث الحمير. فإنه لمن العجيب أن الحمير وهي تنشر الدعارة في القرية في المواسم، تنشر الموت في مواسم أخرى، تملأ جثثها الأجران والمصارف. ترقد الجثة في الأول مهزولة معفّرة زجاجية العينين تزنّ حولها أسراب الذباب . ثم تنتفخ رويداً رويداً حتى تنتصب القوائم الأربع والذيل وتفوح منها رائحة الجيفة يكاد يسقط من بشاعتها طير السماء. يكون الأمر الآن أن تنقض عليها الكلاب أو سلّاخ الحمير الطائف بالأجران يجمع جلود هذه الجثث لصناعة الغرابيل.

الرجل يمشي في الأجران محاذراً مثل ذئب. تفوح منه رائحة الجيفة كأنه جثة حمارة ميتة مبقورة البطن تمشي على رجلين. لحيته وشعر رأسه وثيابه ملبّدة بدهن جثث الحمير والوساخة. عيناه تبرقان في ارتياب. في يده مدية مرهفة وعلى ظهره خرج فيه أدوات كاره. باقي جماعته قد نصبوا خيمتهم بظهر الكَفْر. أضرابه

في الوساخة والنتانة. قد نشروا حولهم الجلود التي لم يتم دبغها بعد. منهم مَنْ يشرِّح الجلود المدبوغة خيوطا رفيعة. منهم مَنْ يبرم هذه الخيوط على المغزل ومنهم مَنْ يملأ طارات الخشب بشباك من هذه الخيوط لتصبح غرابيل. كلهم منهمكون. يستعملون لغة مبهمة. لا يألفون الناس ولا يألفهم الناس. يأخذون منهم الغرابيل وينقدونهم الثمن ويمضون هاربين من الرائحة الزاعقة والسيماء الغريبة.

السلاّخ يحوم حول جثة الجحش وهو يرمق حواليه محاذراً، يريد أن يستأمن حتى ينقضّ. وإذا بشرذمة من العيال كأنما نبتت من تراب الأرض تتقدّم وتحيط به. عيال صغار وعيال كبار. كلهم نحيلو السيقان نحيلو الأذرع منتفخو الكروش حليقو الرؤوس تسد حفر عيونهم وأنوفهم وأفواههم جموع الذبابات. جلابيبهم لا تستر. حماماتهم تبدو صغيرات متقلصات تحت الكروش الكبيرة وبين الأوراك النحيلة.

يحيطون بالرجل في صمت متأمل. المدية في يده مرهفة ماضية. جثة الجحش أمامه. هو مفرود الجناحين مطوي الساقين يتلفت مذعوراً كحدأة. الذباب والغبار فوق المشهد سحباً كئيبة. يخبط الرجل بعرض السكين على جثة الجحش مجرِّباً. تتم ارتجافة صغيرة في الجثة وفي أجساد العيال. تضيق حلقتهم رويداً وتزداد وجوههم كآبة وحزناً.

صفع جثة الجحش مرة أخرى بعرض السكين سخطاً. في داخله طراوة أنثوية تبكي دموعا دافئة. أليسوا ناسا مظاليم يحملون وسخ الأرض على الرأس وعلى اللحية. في الجسد وفي الروح. إنهم استمرأوا التوحش يرمقون عالم الناس بعيون مكسورة يأخذون النجاسة على أنفسهم. يطهّرون منها الجلود ويصنعون منها غرابيل تُعلّق كالشموس على حيطان الدور. آه.. تهمي دموع داخله. هي الشيء الباقي فيه الذي لم تلحقه النجاسة.

بحركة يائسة يمدّ الرجل يداً سوداء عرقانة ملوّنة بدهن جثث الحمير في جيبه. يستخرج حفنة من حبات الحلوى. يمدّ يده باسطاً كفه للعيال. تمتد أيديهم النحيلة واحداً بعد واحد. كل يأخذ لنفسه حبة. يضعون الحبات في أفواههم صامتين. الحلوى مذاقها يقلب الأمعاء. يبصقون من أفواههم الوسخ من حلو الحبات. الآن حلا ريقها. بدأوا يستطعمون الريق الحلو الذي يمصونه في انصراف واستمتاع. الرجل ضرب سكينه في بطن الجحش انفجرت. بدأ يعمل سالخاً الجلد عن الجسد الهزيل. العيال يمصون الحلوى وينظرون. الآن تكاثرت

الكلاب تحيط بالمشهد من بعيد . تنتظر حتى يمضي الرجل بالجلد فتقبل هي على وليمتها.

هكذا . ثم تُعرَّى العظام . تعرِّقها دواب الأرض أو تمحُّها تقلبات الشمس والريح والمطر. تتفرق في الأرض عظام الحيوان والناس النافقة. كأنما الكَفْر مقبرة دراسة تدوس على مدائمها الأقدام الحافية. إذْ ذاك يكون القبر الدار والدار القبر. تنتفي الغربة بين الحياة الموت. يتحاضنان في حجر واحد في قلب رحم الأرض. هناك متسع لكل الأفراح السمراء الصغيرة.

● القلب الحافظ

دفتر مهترىء الغلاف ناحل اللون. فرغم خفق القلب وارتجاف الأصابع إذا تلمسه، إلاّ أنه يهرم ويزداد كآبة. عدد الصفحات يرجع الى أول الزمان، حيث أنه في البدء كانت الكلمة. والكلمة لمّا خلصت من رحم الاستبهام واستوت جمدت متجسدة في فكرة. صارت الفكرة شيئاً، ثمّ صار الشيء حَرَاماً، ثمّ صار الفعل جريمة والنية ذنبا. قلّب البصر في صفحات الدفتر من الغلاف إلى الغلاف. قلب الفكر في الوقت من الساعة الأولى حتى الساعة الحالّة. ليس سوى قدر الرعب مرسوم بتعاريج الخطوط ووخز النقط وصرامة الشرط.

فالانسان كُتِب في أم الكتاب شقيا. وقد أوكل الرؤساء والأولياء بقسمة الشقاء. ينصبون على الناس الوجوه الجهمة. يستأدونهم طاعة أولي الأمر منهم. يمسكون الدفاتر وسجلات الذنوب. في دورٍ نُصبت فيها آلات العذاب وقببت ظلمات السجون. دار من تحت دار من تحت دار حتى تلك النقطة في ذلك الكَفْر في قلب دلتا نيل مصر. هناك استقرّ دفتر الأحوال على مكتب الضابط.

على مكتب الضابط بجوار دفتر أحوال النقطة كان يوجد خنجر عثماني. المقبض من القرن المزين بالفضة والقراب من الفضة المشغولة. وإن الواحد ليدهش من جمال هذه القطعة الباهر. يحس بثقلها ورسوخها وهي مستقرّة في مكانها. ويدرك أن زخارف المعدن النفيس لا ينبغي أن تكون محض زينة، إنما هي تلاوات قدسية. هي طلاسم القوة وتعاويذ المهارة والفتك، هي الابتسامة المهذبة والانتفاضة الخاطفة.

بل إن في هذه النقوش أنوثة مترقرقة، يراها الواحد في انحناءات رقيقة كالشعر ونتوءات ناعمة كآهات حالمة تثير الشوق لتحسس هذه القطعة النادرة

واحتضانها في الأكف. عندئذٍ يجرِّب الواحد صلادتها وثقلها. آلة القتل هذه. مفعمة برجولة في غاية نضارتها. رجولة مرداء ما كاد يخط شاربها. نبيلة الجبين متقوِّسة الحواجب لها عيون عسلية وشفاه قرمزية وأنامل وردية. تلك آلة جميلة، آلة فاتكة شرقية.

وما تكاد في حذر تنضو القراب عن النصل حيث تتوتر العلاقة بين المقبض والشفرة. يمتلىء عظم القرن صلادة وتصميمًا وحرداً. والنصل بارد معقوف عليه لمعة معدنية غبشة. وكأنما هو مبلول. لا يجرؤ الواحد على امتحان هذه البلولة الموهومة بأناملة. يحوشه رعب الحكايات عن السموم الشرقية التي تُسقَى بها شفرات الأسلحة فيكون قدرها إنْ جرحت أنْ تقتل.

والنصل من حديدة هندية مدقوقة في أناقة معقوفة في رشاقة. ما بين الحدين المرهفين، في الوسط الممتلىء يجري نهير نحيل محفور ينضب قبل أن ينعقف النصل. إذْ ذاك تكون الحافة الدائرة حولها العقفة مجوَّفة من ناحيتها حتى تصير في رقة الموسى. هذا التكوين كله تلمّه العين في ومضة وترتعب منه في الومضة التالية.

على النصل توقيع باسم الصانع وتاريخ الصنع يستغلقان على القراءة وإنْ كانت كلمة القاهرة بازغة الحروف. يكون العجب من قدرة المعلم المصري القديم أنْ يستنطق المعدن كل هذا الحسن وكل هذا الحرد. أيكون الجنين في رحم الفن هو الرغبة في القتل. أم أنه احساس المعلم بالذل وهو قابع في قعر دكانه وسنابك خيول المماليك تزلزل سكك الجمالية. رغبة في القتل يحملها نصل مسموم مجلبب بنفيس الفضة.

على جدران غرفة ضابط النقطة لوحات خشبية عُلِّقت عليها كلبشات وجنازير وسلاسل. عُلِّقت في نظام جميل. وهي لامعة لم يلحقها الصدأ. صناعة انجليزية. فلتسقط الدمامة. ولتسقط الغلظة والجلافة. صار السلطان في مصر أناقة. ابهاظ معاصم المسجون بأكوام الجنازير بربرية شرقية. الآن هو الكلبش. مرسوم مثل سوار المرأة الحسناء. إذا يغلق تسمع له تكة معدنية، ثم اللاشيء هامد غائر الصمت.

منذ ما بدأت رسل المملوك الكبير ترحل إلى الغرب. جلسوا إلى الطبالي العالية. شمّروا أكمام الجبب والقفاطين وكبشوا الطعام بأيديهم. لوّثوا اللحى

والشوارب ولم يذوقوا الخمر. ضحك السادة الغربيون وقالوا إن الباشوات ظرفاء. وبدأت صفافير السفن في ميناء الاسكندرية تدخل على الناس من شبابيك البيوت في باب شرقي . هل علم الحمالون أن الصناديق الثقيلة تُفرَّغ من سفن الانجليز حمولتها كلبشات وجنازير وسلاسل. لم يعلموا. لم يسألوا. فالحمل فقط يكون ثقيلا. يستوي ما في داخل الصندوق.

وجاءت اللجنة. من تحت الطربوش. بين الجلدة والشعر تسيل قطرات العرق. في الآذان أقلام الكوبيا وفي الأيدي استمارات الجرد. مصر أقسام معلومة. وكل قسم مقسوم إلى أقسام معلومة. لا ضلال. لكل يد طالت كلبش. وقد جاء الصندوق إلى النقطة في الزمن القديم. وعُلِّقت قيود الحديد على لوحات الحوائط في نظام جميل. كلبشات حسنة مرسومة مثل أساور النساء الحسان. من معلقها هنا يصل فعلها حتى قلب المؤمن القانت في عتامة المسجد الجامع في الكَفْر. اللّهم اكفنا السوء فإنها تنطبق على المعصم. ثم تكون تكّة معدنية، ثم يسقط الواحد في بئر الخوف، يهوي مكسوراً بلا أمل في الرجوع.

جدران الغرفة شاهقة شاحبة الصفرة والسقف بعيد أبيض، طنف الشبابيك تكف وهج الشمس. تبقى الزمتة خانقة. وطنين ذبابات خضراء. يثقل على القلب جو قباب القبور الريفية. مكتب الضابط صغير في قاع هذه الغرفة. تمتد أمامه سجادة صغيرة يبكي التراب من نسيجها الصوفي الخشن. يرفع الضابط رأسه إلى الباب الكبير المفتوح. يرى كم سترة العسكري الحاجب.

يقلّب الضابط البصر في فراغ الغرفة. ليس فيها سوى مكتبه في القاع الغائر. يصرف بصره عن السقف والجدران. إنها كالحة. وهي تمرق مبتعدة عن القاع الذي يهوي بلا قرار. يستعيذ بتهاويل الفضة على قراب الخنجر. تتحسسها أنامله لائذة. يندفع من باب الغرفة فلاح ملوّث الثوب والوجه واليدين بالدماء. يحمل في حضنه رأس جحش مقطوعة. دلف من الباب قبل أن يحوشه العسكري الحاجب. يزعق الفلاح مستغيثاً بالضابط:

ــ يا سعادة البيه جاري ذبح جحشي..!

يتأمله الضابط صامتاً. الآن تخايله بقعة الدم التي رآها على سرواله الداخلي صباح اليوم. تكبر وتكبر حتى تشمل مجال الرؤية جميعاً . يتهاوى الفلاح قابعاً. يتداخل في نفسه فرقاً . يعول شاكياً متذللا:

ـ جاري ذبح جحشي يا سعادة البيه..!

يحول الضابط رأسه بطيئا إلى كوّة صغيرة في الجدار بين غرفته وغرفة التليفون:

ـ نادي على الكَفْر وقلْ لهم يرسلون الفاعل.

والعسكري العامل على جهاز الهاتف أدار كرنكاً صغيراً في جنب الصيوان الهائل المليء بالثقوب. ثم أنه أخذ خازوقاً صغيراً موصولا بحبل لطيف وأولجه في ثقب ثمّ بدأ ينادي على الكَفْر ولا يسمع رداً.

سالت قطرات من الدم على السجادة ، لكن عيني الجحش بقيتا زجاجيتين لا تأبهان للدم النازف من الرقبة المقطوعة. الفلاح أراح كفيه على شعر الرقبة الناعم وتضاءل متداخلاً في نفسه مرعوبا. والضابط يحجب بصره عن الأشياء دوائر حمراء دموية متداخلة تدور في سرعة مذهلة. يكرر ملتاعاً ملحاً « نادي على الكَفْر وقلْ لهم يرسلون الفاعل » لكن صوته لا يخرج، فلا يسمعه أحد.

● قدر العذاب

تطير الأسلاك، محمولة على الصواري، مطاولة الشواش، عابرة الترع. تمضي قاطعة الزمام. لا تتوه مع السكك والمدقات. كل فردة سلك إلى قلب كَفْر، حيث في غرفة عند دار الشيخ تنتصب آلة هاتف. دمدمتها معدنية صارمة يتحاشاها الناس، يخلون حولها الدوائر. يرمقونها والقلوب مفعمة كراهية ورعباً. وإذا تشتد وطأتها ينفر من بين الناس واحد. يكون أن ينفجر زاعقاً: لا. فإن رعبه أكثر مما يشيله القلب، وكذلك كراهيته. بذلك يولد، ويكون قدره العذاب.

مَنْ أبوه؟ كان علجاً عفناً مأفوناً يقضي سحابة يومه مركوناً على حائط تتجمع أسراب الذباب على فتحات عينيه ومنخاريه وفمه. لم يملك مساحة أصبع من الأرض ولم يستأجر ولم يؤجِّره أحد على شغلة أدَّاها له. بقي طول عمره مملقاً يأكل إذا تذكره الناس ويجوع ويتلفت ككلب مسعور إذا نسوه.

ومَنْ كانت أمه؟ امرأة أخرى من هاته المهزولات الكادحات كنمال الأرض السود. حمارة أخرى ضامرة ساقطة الهامة مجروحة الظهر. بلهاء باكية مولولة مفزوعة. من صلب هذين خرج أو سقط كما يسقط الآن من حلبة العيال. عيال

قلوبهم خامدة، مائت في أرواحهم ذلك الضرام الذي يعذّبه. سوف يكون لكل واحد منهم دار وبهيمة وبضعة قراريط لكنهم لن يكونوا أبداً على شاكلته وفيهم أبداً لن يستمر نسبه الغريب.

سقط من صلب هذين كما سقط من صلبه هؤلاء ولم يعنه الكل. مضى على وجه هذا الدهر يصحح نَسَبه الغريب. شيخ بن شيخ بن شيخ. من يوم أن كان في الزمان عسف وإلى يوم أن يُرفَع العسف من هذا الزمان. رجال يعرفون بالسيماء. لا تغرنك رثاثة العمامة ولا خلق الثوب، إنهم البصر إذا سادت الظلمة والرأي إذا اختلطت المعالم. فالواحد إنْ قال مرة في حياته «لا» وضع الله في صدره قلب ولّي من أوليائه. وفي ضميرة خسّة لص، وفي جسده شهوة عار ذكر أو قط سارق، وفي روحه تحب امرأة عاهرة.

ملعون هو. يدور يشمشم في نساء الكَفْر المهزولات كإناث الحمير. الخشنات المتنات. يشمشم فيهن. يبحث عن مساحة ناعمة مخبوءة، عن رجفة، عن كلمة مرتعشة ترضي أبوته العارمة. يدور بين الدور في الحارات الضيقة الملتوية. مهزول ضامر مفرج الساقين هائل الذراعين شائه الوجه. يركب الأجساد الخانعة الذليلة في القيعان المعتمة. يقوم عنهن يرفسهن في قرف. نساء بليدات. حزام قلبه لم يُسق. يوليهن ظهره. عيونهن في لحمه مفعمة مذلة وجمالا. يمضي تحضنه هذه العيون. هنّ نسيج عباءته.

وهو أنوف نزق. يمرضه أن يملأ معدته بالخبز والبصل. ينط فوق سطوح الدور. ينفذ إلى خزائن اللبن كما تنفذ إليها من الشقوق نسائم الهواء. بأصابع سارقة يقشط الدسم من على وجه اللبن. ثم يفرّ. من دار إلى دار تهديه خياشيمه إلى فرخة مطبوخة أو فطيرة مخبوزة. أصبحت له في كل طبخة لحسة وفي كل خبزة لقمة وفي كل طرحة ثمرة وفي كل قرش مليم. وتريد الناس أن تماري، لكنه غضوب كأب كبير، نزق كابنٍ مدلل، وهم لا يريدون أن يعقوه، ولا يريدون أن ينكروه. اللعنة عليهم أجمعين. أغبياء زكائب بلادة وسخة. يمشي في الدرب يحس نظرات امتعاضهم في لحمه. هي نسيج عباءته.

وإنه ليعييه التساؤل عن حرد قلبه. لَمْ؟ وبمه؟ ولو أنهم اجتاحتهم العبيد السود الحمر الأفواه البيض الأسنان تحت سنابك الخيل وفرقعة السياط. ولو أنهم زلزلتهم زلزالا اشارات الهاتف وساقتهم مكبلين بالرعب إلى باحة النقطة ليساموا

العذاب الأليم هؤلاء المأفونون، الأكداس من الغباء والنتانة. يتساءل عن حرد قلبه إذا نزلت النازلة وقفز وقف أمام صفهم المرتعد المذعور كأنه قرد. يحاور ويداور، يكيد ويحتال يدفع عنهم غائلة السوء. لمه؟

وإنه لتملأ قلبه مهابة تلك الوسامة النبيلة في جبين ضابط النقطة. ذلك الترفّع في تقوّس الحاجبين وعسلية العيون. تلك الرقة في الشفتين القرمزيتين. الأناقة في الأنامل الوردية. لماذا إذا رآه قادماً على الحصان الأصهب في عاصفة من تراب الطريق وحوله العساكر قفز أمامه معترضاً سكته كقرد. ينط مترقصا ويداور ويحاور مأحونا غليل النفس. يتحسس بذكائه ذلك الحول المتسنم ظهور الخيل. حتى يستأنسه ويربّت على ظهره. يحوله عن الفتك قبل مقدار شبر من وقوع الفتك. يعيده من حيث أتى. يغمض عينيه. يعييه أن يدرك حرد قلبه.

في ذلك الخلاء بين العسكر يوجد مخلق ليكون في ذلك الخلاء المخصوص لجلاد الفرسان الأفراد. يصولون ويجولون ويأتون بالخوارق العجيبة المذكورة في كتب السيرة القديمة. يجولون بين التحام العسكر ويمنعون أن تنتهي الحرب. يرقصون رقصاتهم المعجزة على ايقاع الرعب في قلوب الخلق. رعب معلق مقدور يثقل على الأرواح ويحني الهامات.

لم تلده امرأة، إنما لحظة فريدة يخصب رحمها الظلم فتلد الرجل الثائر. لا تسألْ عنها في الدور النتنة ولا في صفحات العقول المأفونة. بل في قلوب الفقهاء الحافظين الموكولين بالحكايات العجيبة. مصونة في الصحائف الصفراء. تُتلى في بيوت رفعت. أعتمت جنباتها والناس ناكسون مبهورون.

إنه ضرورة محصلتها تصاول العسف والبلادة منذ الأبد دون أن يلتحما. إنه ضرورة شائهة لكنه كائن وراسخ ومستقر كما يستقر العابد على سجادة صلاته، مفعم الروح بالصفاء مفعم القلب بالوحدة. الوحدة قدره، إنْ تجاوز دائرتها هلك. يمشي تحت هذه الشمس لا تترك قامته ظلا. يقبل عليه الفلاح صاحب الحقل، يداه ملوثتان بالدم، ساقط الفك وعلى ملامحه الرعب. عند ذلك مشى إلى غرفة الهاتف ليسمع الاشارات. فلما سمعها قال للرجل:

ـ امشي ورائي.

لم يعِ قلبه شيئاً مثلما وعى ايقاع تلك الخطوة، مشية المتهم إلى المساءلة،

مشية المقبوض إلى العذاب، مشية المحكوم إلى الحبس، أو مشية العابد إلى أداء الفرض ولم يرتجف قلبه لشيء مثلما ارتجف للتسابيح والصلوات الخائفة. إذْ ذاك تُستنفَزُّ مهارته. تتوتر عروقه كحبال قلاع المراكب الموسوقة. أي رياح سموم تدفع الحمولات الثقال على نهر القدر إلى المهاوي. أترى تكون نجاة؟ أيكون ثمة مفرٌّ؟

سيلعنه الناس بعد أن يموت ويقرأون على روحه عزائم الهلاك، لكنهم رهائن ضرورة وجوده، يلبسونها ثياباً أخرى تطل منها روحه العارفة كروح ولِّي من أولياء الله أو روح شيطان مريد. وإذا دخل في ظلال أشجار ذقن الباشا حلّ به سلام وسقت جفاف جسمه بلولة الثقة حتى رأيت على وجهه حلاوة الابتسام.

قفز على درجات السلم الرخامية. أقدامه لا تحدث صوتا. دخل من الباب وحيّى العسكريَّ الحاجب. ثم وقف على باب الغرفة وخلفه الفلاح صاحب الحقل. الغرفة شاهقة الجدران بعيدة السقف. تنزل جهامتها على الأشياء. لا مفرّ. رأسا الضابط والفلاح صاحب الجحش على خط واحد. بينهما الرأس المقطوع وبركة الدم.

● القلوب الموجوعة

أنامل وردية ، مصبوغة الأظافر، رفيقة ناعسة، تناولت الأسطوانة. وضعتها على قرص الحاكي. حررت الابرة على أول سطر واللحن خرج، « زاد وجدي والبعد كاويني ». فردوس الغياب. التعالي عن حزن الحقيقة إلى حزن الغناء. السرادق منصوب. الضوء غاسق والريح طيبة والروح مشتاقة وكل المنشدين حاضرون وكل الأناشيد حزينة. موال ريفي عن الليل الطويل الحالك، قارىء يرتّل آيات التخويف من عذاب الآخرة، ربابة تصف كيد الأعداء للفارس البطل. طقطوقة متوجعة عن صدِّ الحبيب. رق وعود وناي وقلوب موجوعة. لا تسلْ مَنْ. هنا الذي تعذّب وهنا الذي سام العذاب. الكل هنا مكسور مهزوم ينشد أن يريق دمعة قبل أن يأوب إلى نهار الكدح على جانب من جانبي ملحمة العذاب التعيسة على هذه الأرض. لا ضرٌّ. السرادق رحب والبكائيات بليغة والمفاجاة أزلية. وهي تتمنى أن تبقى هناك بلا اياب.

انتهت الأسطوانة وروحها ما زالت أسيرة الخدر، السكر من تجريب اندحار الأشواق، من معاناة الموت. خصلات شعرها كستنائية تحيط برأسها على المخمل

القاني لكرسي وثير. جبينها أصفى من قطرة ندى صبحية على ورقة وردة. عيناها مكحولتان نائمتان تحت قوس حاجبيها. على وجهها صفاء ساعة الغروب وسكونها. سمع قلبها تلك النقرة الواهنة على الباب. أشرق وجهها. قامت. خصلات الشعر الكثّ حول وجهها وعلى كتفيها . رشيقه في رداء نومها الحريري. يرتجف النسيج من همسات أنوثتها، يوشك أن يتأوّه.

تحب غرفة نومها، ستائر المخرمات الوردية والمخمل الثقيل القاني تجعل الضوء غسقاً ناعمًا أبدياً. خزانة ملابسها الهائلة بمراياها الكبيرة، السرير الوثير الشاسع ووسائده المزينة. مائدة زينتها وعطورها. ثم مضطجعها الناعم وإلى جواره الحاكي ونفيره الكبير . فرحت بغرفتها الوردية حتى كادت تترقرق في عينيها دمعة. لقد ولدت في أحضان الحب وبقيت طول عمرها مضمومة إلى الصدور تمرغ خدودها في الدفء مغمضة العينين. آهٍ ما أقسى وحدتها الآن . تحدّرت من عينيها الدموع.

والشمس أداخت المعيز والكلاب، رقدت في ظلال الجدران القميئة تجتر أو تلتهي مغمضة العيون. ومشت الأبقار والجواميس تحت نير الشغل مثقلات الخطو تفور الرغاوي البيضاء من الخشوم. وتدلّت هوام الحمير المهزولة، يكدحن السكة مثقلات بالأحمال.

والشمس أودت بأسراب الذباب إلى الجنون، أطبقت طنانة غاضبة تنهش بضراوة في فتحات العيون والأفواه والمناخير. ومن الشقوق خرجت هوام الأرض تسعى في كل اتجاه، نمال ودود وما شاء الله من كل شيء. وأطبقت الزنابير الحمراء على أكوام التتانة وجثث الحيوانات النافقة في الأجران. وعلى شواش الأشجار الجامدة وقفت طيور مفرجة المناقير لاهثة وغربان سود تنعب يتردد نعيبها في هذا الصمت الظهري.

والمرأة الحافظة خرجت تدبّ من الزقاق. الشمس على رأسها والكتاب تحت ابطها كليلة البصر لا تكاد ترى. حافية تحاذر أن تدوس في نجاسة تخرق الطهر الذي هو حفاظ روحها وجسدها. طهر محيط تجهد أن تبقيه عليها. ما أن يتثلم حتى تسرع ترأب الثلمة بالتطهر والغسيل والتسابيح. إذْ ذاك تدركها طمأنينة البرء من شوائب هذه الدنيا. طمأنينة كالكبرياء في عيني المحموم الذي فسد ريقه فعاف الطعوم جميعها.

تستعين على السكة بالتلاوة. فردوسها أشكال الحروف وألوان الأصوات وبقايا الحكايات وجميل المواعظ. لا تني تجوس الدروب الظليلة. ها هنا لا يحوشها كل بصرها، تتبع روحاً عارفة لا تضلّ وقلبا واعياً. وتجرّب الفرح. فرحا مجتاحاً كنزوة ظالم. سر الكلمات يأتيها بذوي الحاجات، المرضى والمكسورين والعقم ومَنْ أصاب أرواحهم مَسّ. تلين لهم الجانب وتمسح على مواجعهم بسر الكلمات.

عبرت ظلال أشجار ذقن الباشا إلى بيت الضابط الواقع في حديقة النقطة الخلفية. خرجت من كمها يد سوداء معروقة نقرت باب بيت الضابط والباب انفتح. وقف الشبحان متقابلان. لا تسلْ أيها الشوق وأيها الموجعة. فإن لوعة البعد هي التياع عناق اللقاء. تنحلّ مادة العنصرين في حقيقة الفرحة. افترّ ثغر زوجة الضابط عن أسنان لؤلؤية. والمرأة جهرت بتلاوة مؤسية. مشياً عبر الردهة إلى غرفة النوم.

تربّعت المرأة على البساط الناعم والشابة تمددت على مضطجعها الوثير من المخمل القاني. ساجية ملامحها وسط هالة من خصلاتها. جسمها رقيق لدن على امتداد متكئها. انزاح الرداء الحريري عن ساقين رائعين مرهفين وفي قدميها نعلٍ منزلي ذهبي. بدأت المرأة تتلو صلواتها. دمائة الضوء الوردي في الغرفة تملأ روحها. تشف مادة كيانها حتى يتوحّد الداخل بالخارج وتكون القراءة كأنها صادرة من ألسنة الهباءات غير المرئية. والشابة أراحت خدود قلبها على وسادة القراءة الوثيرة. أغمضت عينيها. تحس أنفاساً دافئة على رقبتها.

خادم صغيرة فتحت الباب ودخلت تحمل في يدها أرنبا صغيراً أبيض. وضعت الأرنب جنب سيدتها الشابة على متكئها. الشابة ثنت ذراعها حول كيان الأرنب الناعم الهش. لبد هذا في جنبها حتى أحست بهمسه وتردد أنفاسه. احتملته في يديها الى صدرها وأغمضت عينيها منصتة إلى تنفسه ناعمة بملمس فروة في رقبتها. الخادم مشت إلى خزانة الملابس. أخذت واحداً من سراويل سيدها الضابط وأعطته للمرأة. أخذته هذه ونشرته على حجرها وبدأت تقيس أبعاده وتطويه وتنشر الطيات وهي منخرطة في قراءات وصلوات. والخادم خرجت وأغلقت الباب. بعد قليل عادت مرة أخرى وفي يدها سكين أبيض صغير أعطته للمرأة، وضعته هذه جنبها على البساط.

حملت الشابة الأرنب في حنانيها .أحست به في يدها يلبد وينكمش خائفاً. مدّت ذراعيها به إلى المرأة. مغمضة العينين معلّقة الذراعين في الهواء يغمرها احساس رقيق بالفراء الناعم. رويداً رويداً عاد الذراعان إلى جنبيها. في اغماضها تسمع وصوصة الحيوان الصغير. كأنه طفلها الذي ولدته لتوّها، وكأنها تنعم بارهاق ما بعد الولادة. يفترّ ثغرها إذا يزداد صوته فزعا، حتى يخمد. حينئذٍ تشملها راحة أم أخلد وليدها الى النوم.

بطيئا مدّت أصابعها حلّت حزام ثوب نومها الحريري، انسدلت ضفتاه على جانبي جسمها على المتكأ. تعشق أن تتعرّى، وتشتاق لأن تحضن. أحست قطرة الدم تسقط عليها تبلل سروالها، والمرأة تقرأ التعازيم بصوت قوي. فتحت عينيها من المفاجأة وقامت نصف قومة. من رقبة الأرنب المذبوحة قطرت حمرة الدم على سروالها الناصع البياض حتى النضوب. في اليد الأخرى للمرأة سروال الضابط عليه قطرة حمراء بليلة. أخذته بين كفيها. قامت مشقوقة الثوب، مشعثة الشعر، مسبلة الجفنين مفترّة الثغر. في الخزانة ثياب زوجها. تأملتها قليلا ثم أغلقت الباب. عادت جلست على حافة المتكأ. رفعت رأسها تنظر للمرأة الواقفه. وجهها المشوّه مليء بحنان غريب.

مدّت يدها أمسكت بيد المرأة الخشنة. جذبتها برفق حتى جلست إلى جوارها. تحس بسعادة غامرة أنها عارية وأنها مشمولة بكل هذا الحنان. والمرأة بدأت تتلو. أبداً لم يكن صوتها هكذا عذب وقراءتها حزينة. جاءت الخادمة وأخذت جثة الأرنب الصغير.

● الخنجر العثماني

بسط الضابط كفيه على الخنجر الموضوع أمامه. التفّت أصابعه حول الجسم المعدني. هكذا قبض عليه حينما أعطاه أبوه إيّاه يوماً وصمت. أنصت والأب يقرأ في وثيقة متهرئة سطوراً بما يخصهم في وقف قديم. لم يفهم الكلمات العثمانية، لكنه أحسى بكبرياء مَنْ يسمع الحكم باعدامه أمام محكمة عليا. هكذا يُفرَز الواحد ويمتاز. حينئذٍ يكون عليه أن يحمل قدره وحده، يمضي لا يلتفت وراءه.

من يومها بدأ يمجّ الخروج، ويألف البقاء في البيت المكفوفة عنه أضواء النهار، وضجة غوغاء الشارع بالستائر الثقيلة. الآن يرى الأشياء تشوبها حمرة

الدم التي تأخذ عليه آفاق بصره. تتحرك شفتاه بأصوات لا تخرج، بينما تجلجل في داخله الكلمات آمراً عامل الهاتف أن ينادي على الكَفْر ويقول لهم يرسلوا الفاعل. ثمّ يحلّ الصمت وتطن الذبابات الخضراء قرب سقف الغرفة. ينكس بصره فرارا من أن يثقل على قلبه جو قباب القبور الريفية.

ثمة خط مستقيم بين رأس شيخ الكَفْر والفلاح صاحب الجحش ينتهي بالرأس المذبوحة وبقعة الدم على السجادة . في عيني هذا الحيوان النافق وسامة طفلية، كأنها عيني أمه. تقابلها أكتاف أبيه شامخة تطاول لوحة الجنازير والكلبشات والسلاسل، وكأن هذه أوسمة ونياشين تحلّي صدره. وجه الأم عند أقدامه يريح خده على الأرض، والأب ضائع الرأس في فراغ الغرفة. كأنما تنزف عيون الأم الوسيمة.

يجب أن تصل كلماته إلى عامل الهاتف وأن يخطر هذا الكَفْر بارسال الفاعل. فإن أمه كانت تطارده بحنانها وكلماتها الذليلة. تطارده بعاطفة مبلولة عرقانة ساخنة تكاد تقلب أبعاده. يفرّ إلى جوار أبيه النظيف الصالح الطيب الريح. يغمض عينيه. وإذا يفتحهما يجد الأب ما زال هناك والأم والفلاح صاحب الجحش وشيخ الكفر. هذان اقتحما ركن البيت وها هما يتأملان المشهد الفاجع بعيون لصوص. يريد أن يمتلك الجهامة التي كان يمتلكها أبوه ليلقي الرعب في قلوبهم.

لكن هذه غرفة بلا ستائر مفضوحة للضوء وشبح أبيه ضائع الرأس في الفراغ. وبين آنٍ وآخر يخايله من هذه الشبابيك وجه من تلك الوجوه الريفية الشائهة الخلقة الغامضة العيون. وفي بيته ترسل زوجته على آثارهم بخادمتها الصغيرة، سحرةً وكاتبي أحجبة ومؤاخي الجان. يرى آثارهم الغريبة في كل ركن ذات أشكال وروائح تنشر في جسمه الرعب. وصباح اليوم، إذا يرتدي ثيابه وجد على سرواله بقعة مسمّرة من الدم.

تحسس الرسوم على قراب الخنجر، يتشبث بطلاسمها ليوقف الجنون. في عيني الحيوان المذبوح وسامة عيني الخادمة الصغيرة تطلان عليه من كل ركن منطويتين على الخيانة والغدر والهزء. في عيني الحيوان وسامة عيني زوجته تطلان عليه من على وسادة السرير الحريرية المزينة بالمخرمات وهو محصور يريد أن يفرّ من الحاح شبقها الساخن المبلول. يكاد يقيء، يكاد يصرخ! احتجاجاً على ظلال الهزء المتكومة على الطرفين الناعسين.

ثم انها ترسل على آثارهم بخادمتها الصغيرة. البنت تدور في الأزقة. تتسكع جنب الحيطان. تقرب أنفها الصغير من أنوف مجعّدة وسخة. تهمس بالقزي والشين. تتفزّع الذبابات وهناً ثم تعود تحطّ تنهش في المآقي والأفواه المشدوهة. تخرج العجوز السوداء من الدرب. الفتحات النازفة في الوجوه الشائهة تناضل الذباب وترجف بالسوء. العجوز تملأ البيت بقراءاتها الشريرة. تنثر أشياءها الصغيرة المسحورة جنب الحيطان وعلى العتبات.

صرخ صرخة مدوية بقت في داخله لم يسمعها أحد. لم يسمعها أبوه المنتصب شاهقاً في جوف الغرفة ضائعة رأسه في الفراغ مزين صدره بالكلبشات والجنازير والسلاسل. تتحدّر عيناه نزولا على الجسد الأب إلى الرأس المهينة جنب بقعة الدم على السجادة. إنه يعرف عجزه ويعرف أنه لو قال «لا» مرة واحدة لتحرر.

انتصب واقفاً. التقط الخنجر من على المكتب. أحكم قبضته عليه. تنتشر صلابة القرن في عروق لحم يده حتى يتحجّر. استلّ السلاح من القراب. يد منشورة بالنصل ويد تحتضن طلاسم النقوش. لمعت الشفرة الرصاصية قبالة عينيه ابتسم لها. ثم قفز. أصبح في وسط الغرفة. تلك رشاقة مخزونة في خلايا لحمه لم يجرّبها قلبه أبداً ولم تمتحنها جسارته. شُدِه شيخ الكَفْر والفلاح الجالس جنب رأس الجحش. جاء العسكري عامل الهاتف، الكل ينظرون معلّقي الأيدي ضارعي الأكف.

لكنه لم يكن يراهم. كان يجرّب لحظة عبقرية يغيب فيها ابتذال الضوء الفاضح خلف غسق الحلم. تملك الأقدام القدرة على أن تكون أجنحة. وتكون اليد المسلحة شرارة وامضة والجسم لهب لطيف. كان يجرّب لحظة التحرر من كيانه والتحول الى صورة عبقرية على جدار قصر قديم.

أمراء مماليك. الجسم وهم والشفاه قرمز والعيون صبح والعمامة سحابة يوم تياه بشمس مشرقة. أمراء يتوثبون اقتداراً ورشاقة. تضجّ صورهم على الحيطان مُرُوَّة وفحولة. تسمع بحّات صدورهم وصنج خيولهم. ترسل صلصلة معادن أسلحتهم في القلوب رعدة. يقفز في الغرفة من جانب الى جانب تتبعه عيون الناس الثلاثة.

كان يؤدّي للحارس قرشه ويمشي صعداً إلى القصر القديم. يقف مذهولاً

أمام الصور أوقاتاطويلة ثم يأوب. يبقى في تلك العتامة الغسقية التي تحبسها الستائر في منزلهم مأمونة من فضح الضوء. تتوجّع روحه من حبسها في صندوق جسده اللحيم الرخو. من أب إلى ابن إلى حفيد يحكم زخم اللحم على لألاء الروح حتى يقبر بلا رجاء. ثم يسلمه أبوه الخنجر العثماني.

ها هوذا يأوب. لم يركد قط ذلك السيل الجارف من السنابك والغبار. صنج الخيل وصليل الأسلحة وبحّات صدور الفرسان. القلب موصول بطلاسم النقوش على قراب الخنجر. بتلك الذؤابة المتلألئة في طرف النصل كأنها نجمة هاذية. صرخ صرخة مدوية وقفز قفزة هائلة أصبح على رأس الفلاح صاحب الجحش. الآن سقطت حمرة الدم عن الأشياء وأصبح يرى بصفاء ووضوح. ركل الرأس المذبوحة بسن حذائه وهو ينظر بازدراء واستخفاف وترفع.

الفلاح حلّت به نوبة رعب وهذيان. انفجر في زعيق وولولة متفجعة. قام واقفاً يتراجع بظهره إلى الحائط أمام الضابط. الضابط يتبعه مصوِّباً إليه سنّ النصل ويده الأخرى مرفوعة خلف رأسه ممسكة بالقراب. الفلاح يوغل في ولولته المرعوبة والضابط يتبعه مصممًا. العسكري عامل الهاتف والعسكري الحاجب وشيخ الكَفْر يرقبون المشهد ولا يفهمون ماذا سيؤدّي اليه.

وصل الفلاح في تراجعه إلى الحائط. ارتكن إليه مرفوع اليدين مرتجفاً رعبا. الضابط لا يزال مصوباً سن الخنجر إلى حلق الرجل. فجأة زعق زعقة مدوية وهجم على الفلاح هجمة لا تُرَدّ.

● توقيع

إنه الرقيب الموكول بالعذاب. لا يمارسه تلذذا ولا يقبل عليه وهو محزون. الأمر لديه أن النقمة حفاظ النعمة. وأن التعذيب سياج المتعة. وإلّا كانت الفتنة وما اطمأنت الجنوب في المضاجع. فاضربْ، السياط أقلام الحق تسطّر على هذه الأجسام التعسة حكمًا قديمة. ولا تأخذنّك شفقة، فإن هذا لهو اهتزاز اليقين. ولا تفرحْ، إنك اذنْ تقضي مآرب نفسك ولا تخدم الناموس.

وهكذا يعرف وجيف قلوب أهل المحابيس تحت أشجار دفن الباشا إذا يدخل في الظل ماضياً إلى باب النقطة. لا يستخفّه الفرح ولا يبهظه الحزن، إنما يطمئن. فالقلوب إذا ما لم يعمرها الخوف تربّع الشيطان فيها. قلبه مركوز على حذائين حكوميين يضربان الأرض في ايقاع رصين. يصعد الدرجات. يلج من

الباب. باب غرفة الضابط على اليمين. يستدير. يحيي تحية عسكرية ضارباً الأرض بكعبه، بسطة كفه منشورة للأمام والسبابة مركوز أنملها على الحاجب الأيمن. ثمّ يجمد في وضعه هذا. وهو قادر على أن يبقى هكذا بلا حراك ألف عام. غارق في طمأنينة صوفية لا يؤرّقها تأخر إذن الضابط له بالانصراف.

وإذا جاء الاذن فهو ليس تخفيفا، بل هو اشارة ببدء واجبات اليوم. يلج المفتاح الكبير في باب غرفة السجن ينهضون من الأركان. أشباح تعسة مكسورة. الوجوه لزجة بالعرق والعيون مخبوصة بالحمار والأجسام فائحة بنتانة العرق. لا يشمت فيهم ولا يحزن لهم. إنما يحس أبوّة عميقة كأنه الراعي الصالح يكلم شعبا وقع في الخطيئة. يخرجون وتبدأ دورة العذاب.

في البدء يكون تنظيف بيت النقطة. الرقيب يرى هذا الطقس أساسا في تربية القلوب. إنه معرفة البناء معرفة صحيحة كما ينبغي أن يعرف الابن الصالح بيت الرب. إذْ ذاك تقبل النفس على العذاب وقد أُذِلّت. وإذا تكون القدرة على ادراك جسامة المخالفة والانسلاب في الألم. بهذا لا يكون ايذاءاً، بل خلاصا تنصاع له الروح والأعضاء في تساوق لا يربكه حق التمرد.

يقسم المحابيس على العساكر، كل عسكري موكول بمساعدته خمسة منهم، والرقيب من فوق هذا شاهد عليم. وباشارة من يده تبدأ المجزرة. من المحابيس مَنْ يُعذَّب بالسياط أو بالجريد الأخضر على الظهور أو على الأقدام. منهم مَنْ يحمَّل بالأثقال ويؤمر بالجري بلا توقف في فناء النقطة. منهم مَنْ يغرق في خزان المراحيض، فإن رفع رأسه ناشته السياط. منهم مَنْ يجرَّب أنواعاً أخرى، لكنه على أي حال لا بدّ ذائق سم الأصناف جميعا. كل ذلك في ايقاع مطّرد سريع لا يتوانى ولا يتلكأ. الرقيب ملاك هذه الحركة اللاهثة العرقانة ودولابها الجهنمي لا يدعها تهن ولا تترهل في جزء من أجزائها. السياط والعصي تخرط كالسكاكين في الأجساد المكروبة المولولة واللحن بشع تقشعرّ منه الابدان.

يغمض الرقيب عينيه على طمأنينة قلبه. يحسّ بتلك اللحظة الرائعة حين جلس في قاع المركب وامتلأت القلاع بالريح وسارت الجارية على صفحة النيل. إذْ ذاك صدقت التجربة المقولة ورسخ الايمان وتوثّقت جوانب النظام وصار العمر لحظة تقطرت فيها كل اللحظات في مزاج بللوري غير مشوب رائق.

النهر يجري كما تجري مسألة الحساب. منطق أزلي لا يعرف البدء ولا ينتهي

إلى ختام. صدق صارم يصرع الخطأ وينفيه. يقول الأب، في أذنه القلم وكفّاه مبسوطان على الصفحة قدام ناظريها. يقول الأب، يرسم الابن واحداً من الحفظة. الأب كاتب في ادارة ضبط النيل. والابن إذا امتلأ قلبه بأصول الحروف وأسرار الأرقام فإن عينيه عشقتا التحليق وجفت أن يكون لها منزل على شيء من الأشياء.

قال الابن لأبيه، بعد أن بارك الرب، أنه صاعد في النيل. النهر يبدأ من قلب القارة، ويدلق مادة عند حافتها الدنيا، والدولاب خالد. على الشاطئين شعوب موحّدة تجيد الفلاحة. لا يسألونك من أين ولا يمتحنون لون جلدتك. يعطونك فأساً لتزرع أو قلما لتحسب مطلوب السلطان أو سوطاً لتنشر الخوف وترسي قواعد النظام. الابن ذاهب. تباركت الرحلة. النهر منساب والماء فيه صول. لا يسأل متى ينزل. اشتبهت الطيور والسحب وشواش الأشجار واجتماعات نبات الحلفاء وسيقان النساء الجالبات الماء من الموارد والرجال الساقون حيواناتهم. سيعرف القلب لحظة اكتمال المسرّة. عندئذٍ جمع أشياءه وداس على اللوح المرن من القارب حتى الشط.

وهو لم يسأل ولم يتردد ولم يرتب ولم يفرح إذا وضع في كفه سوط وكسي لباس الشرطة الأصفر. إرتكز قلبه على الحذاءين الحكوميين ومشى راسخاً مؤمنا. يفتح الرقيب عينيه. تباركت الأشياء. السياط تخرط في الأجساد كالسكاكين. وعلى وجه الزمام تعمل الفؤوس في الثرى الطري. والأقلام تحسب في الصحائف البيضاء تقدر المقادير وما يؤدّى إلى السلطان والنهر يمشي بين الضفتين في جلال وفي ربوع الوادي القديم يستتب النظام وتوأد الفتنة في قيعان قلوب فئة ضالّة تُنصَب لها في نقط على امتداد الوادي آلات العذاب.

لكن الفلاح صاحب الجحش إذا هجم عليه الضابط هجمته التي لا تُرَدّ وصرخ هو صرخته المدوية ، صكّت الصرخة سمع الرقيب. لم يرتعب. وإذا توجهت إليه أنظار المعذبين والموكولين بالعذاب جاوبها برسوخه الأبوي. وأشار أن يستمر كل شيء في طريقه المرسوم أمّا هو فقد قام بطيئاً ليرى ما كان.

وإذا ما دخل غرفة الضابط كان هذا يرفع عينيه بالخنجر إلى أعلى، وإذا ما نظر كان الخنجر قد أهوى وفصل رأس الفلاح عن جسده تدحرجت استقرّت قريبة من رأس الجحش. تتقابل أربع عيون عبيطة مفتوحة غافلة عن دم جمد مسوداً في واحدة ولا يزال حاراً متدفقاً من الأخرى. أمّا جسد الفلاح فقد انهار

قاعداً جنب الحائط وما بين الكتفين جرح هائل يطرطش دماً.

قفز شيخ الكَفْر إلى وسط الغرفة صارخاً «لا» لم تكن صرخة ثورته بل ولولة عجزة. إن ما حدث شيء لم يحط به ديوان تجربته والمسألة تعييه فما يسعه أن يبتدع الجواب. لقد كان يعرف أنه سيموت، ولكنه لم يحسب أنه سيعجز حتى يكون فضلا زائداً لا نفع فيه. حدّق أمامه ساقط الفك.

الضابط يتقدم في يمينه الخنجر وفي يساره القراب ـ أكثر ما يكون صفاءاً وجمالاً ـ إلى ما بين يدي الرقيب. الرقيب أخذهما من يديه هادئاً وأقرّهما على المكتب. أخذ قيداً حديديا من اللوحة وقيده وأزاحه. أوقفه إلى جواره متأخراً عنه قليلا كأنه في حماه، سكن هذا وادعاً مسبل الجفنين.

التفت الرقيب إلى شيخ الكَفْر وكلّمه وقوراً نافذ الكلمات:

ـ إننا سنضع الضابط في السجن، ونرى في أمر الجثة ونخابر الجهات العليا حتى تنظر في اعادة الأمور إلى نصابها. !!

ينظر من عليائه إلى شيخ الكَفْر الذي بقي واجماً مصدقا. يضيف مرتّلاً كأنما هي سطور في كتاب مقدس قديم:

ـ عندئذٍ لا يكون إلاّ أن تُضاف سطور قليلة في دفتر الأحوال.. !!؟

ثم خطا إلى المكتب. وقف إلى جواره لا يجلس إليه. أمسك الدفتر المهتريء الغلاف في اجلال. فتح الصفحة وأثبت التوقيع.

عبد الحكيم قاسم

برلين الغربية

الأخت لأب

وسطور من دفتر الأحوال

منذ ما بدأت رسل المملوك الكبير ترحل إلى الغرب. جلسوا إلى الطبالي العالية. شمّروا أكمام الجبب والقفاطين وكبشوا الطعام بأيديهم. لوّثوا اللحى والشوارب ولم يذوقوا الخمر. ضحك السادة الغربيون وقالوا إن الباشوات ظرفاء وبدأت صفافير السفن في ميناء الاسكندرية تدخل على الناس من شبابيك البيوت في باب شرقي . هل علم الحمالون أن الصناديق الثقيلة تُفرَّغ من سفن الانجليز حمولتها كلبشات وجنازير وسلاسل. لم يعلموا. لم يسألوا. فالحمل فقط يكون ثقيلا. يستوي ما في داخل الصندوق.

وجاءت اللجنة. من تحت الطربوش. بين الجلدة والشعر تسيل قطرات العرق. في الآذان أقلام الكوبيا وفي الأيدي استمارات الجرد. مصر أقسام معلومة. وكل قسم مقسوم إلى أقسام معلومة. لا ضلال. لكل يد طالت كلبش. وقد جاء الصندوق إلى النقطة في الزمن القديم. وعُلّقت قيود الحديد على لوحات الحوائط في نظام جميل. كلبشات حسنة مرسومة مثل أساور النساء الحسان. من معلقها هنا يصل فعلها حتى قلب المؤمن القانت في عتامة المسجد الجامع في الكَفْر. اللّهم اكفنا السوء فإنها تنطبق على المعصم. ثم تكون تكّة معدنية، ثم يسقط الواحد في بئر الخوف، يهوي مكسوراً بلا أمل في الرجوع.

الثمن ٨ ليرات لبنانية او ما يعادلها.

دار التنوير للطباعة والنشر ص. ب ٦٤٩٩ - ١١٣